« لكنّ محمدا لا بَوَاكِيَ لَه »

العـــــار!

الرسول يعاد في مصر، ونحن نائمون

« لكنّ محمدا لا بواكيَ له »

العـــــار!

الرسول يهان في مصر، ونحن نائمون

هتك الأستار عن خفايا كتاب « فترة التكوين في حياة الصادق الأمين »

د. إبراهيم عوض

دار الفكر العربي
٩٤ عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة

الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

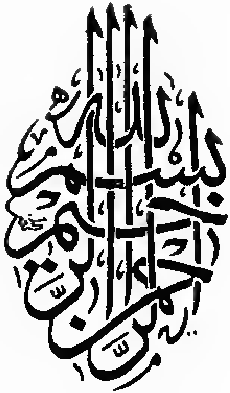
بسم الله الرحمن الرحيم

من قلب طعين

كنت ، أثناء مطالعتي لكتاب « فترة التكوين في حياة الصادق الأمين » ، أحسّ أن أحدهم يطعنني بسكين محمّاة في قلبي حتى تعوص فيه إلى مقبضها ثم ينتزعها بوحشية ليعيد الطعن بوحشية أشدّ. ذلك أن الكتاب من أوله إلى آخره إهانة لسيّد البشر صلى الله عليه وسلم واستهزاء شديد به لا أظن أن مصرعا الحبيبة أو أي بلد إسلامي آخر قد شهد له مثيلا من قبل . وإني لذاهل غاية الذهول من هذه الوقاحة في الإقدام على إيذاء النبي عليه السلام في بلد مسلم كمصر يتصدّى لأعداء الإسلام بمسالة منذ قرون ويدحرهم واحداً تلو الآخر بدءاً بالصليبيين ، ومروراً بالتتار ، وانتهاءً بالاستعمار الحديث ومن يمشي في ركابه من مستشرقين ومبشرين فكيف وصل الحال إذن إلى أن يصدر في أرض الكنانة مثل هذا الكتاب المحرم ثم لا تنتفض الأمة على بكرة أبيها ؟

أين الكرامة ؟ أين العزّة ؟ أين حميا لتيمنا وحميا ؟ ماذا سنقول لربنا غدا إذا وقفنا أمامه وسألنا : كيف رضيتم أن يهان رسولي على مرأى منكم ومسمع ثم لا تحركون ساكنا ؟ عفوك اللهم وغفرانك !

ومعذرةً يا رسول الله أن تطاولت عليك الكلاب والحناوير ، وأسنك ناتمةٌ في العسل بل في مياه المجاري مشعولةٌ بطلتها وفرحها ولهوها السخيف ! لو أني أعيش في عصرك لأكببتُ على قدميك أغسلهما بدموع الندم ولمرّغتُ وجهي في التراب الذي تمشي عليه قدمك الشريفة، ولكسى معلول اليد لا أستطيع إلا أن أكتب وأردّ وأبّه الغافلين لعلهم يستيقظون !

إن المسألة ليست مسألة إيمان وكفر أو حرية عقيدة وتعبير ، فليستْ أماري في أن كل إنسان حرّ في أن يؤمن بما يشاء ويكفر بما يشاء ، بل المسألة مسألة سفاهة وبذاءة وقلة أدب ورغبة في إهانة رسولنا الأكرم ، وهو ما لا يطيقه أي مسلم بل أي إنسان حرّ سيل أيا كان الدين الذي ينتمي إليه وأنا هنا أتوجه بالاستغاثة إلى كل المسؤولين في الدولة ، وإلى القائد العام وشيخ الأزهر ورئيس الجامعة الأزهرية وأعضاء مجمع البحوث الإسلامية ونواب الأمة في مجلسي الشعب والشورى ، وإلى كل الأدباء والمفكرين والكتّاب والصحفيين الشرفاء الذين يحبون رسولهم متسائلا كيف طاوعتكم ضمائركم على السكوت على هذا العار ؟ أو قد صار محمد رحيصا إلى هذا الحدّ ؟ أو قد أضحى صلى الله عليه وسلم كلأً مستباحًا لا يحد من

يدفع عنه العدوان ؟ إنى لا أكاد أصدق هذا الذى جرى ، وأهونُ علىّ أن أصدّق أن السماء قد انطبقت على الأرض !

أيام أن كانت هناك بقية من نخوة وعزة كان هناك من يكتب كتابا عنوانه « الصارم المسلول على شاتم الرسول » ، أما الآن فيا للحزى والمهانة ، إذ كل ما نستطيع أن نؤلفه هو كتاب بعنوان « لكن محمدا لا يَبْكِى له ! » . لقد استوحيت هذا العنوان من عبارة الرسول العظيم التى قالها عند انكسارة أُحُد حين رأى نساء المسلمين آخر النهار يبكين الشهداء ، إلا حمزة فلم يكن يبكيه أحد ، فقال عليه السلام متوجعا : « لكن حمزة لا بَوَّاكِىَ له ! » ، فعندئذ بكته الباكيات أحرّ بكاء ، فيا تُرى هل هناك من سيبكى للرسول والإهانات التى وُجّهت إليه وبثبت أن أرض الكنانة ما زالت خصبة تنبت الكرام الأحرار ؟

الرد على كتاب « فترة التكوين »

الرد على كتاب « فترة التكوين »

منذ فترة ليست بالقصيرة أخذ الغثاء يحيك فى صدرى تجاه الكتب التى تحمل اسم « خليل عبد الكريم » وتهاجم الله والرسول والصحابة والإسلام مهاجمة شرسة لا تستند إلى أية أسس سليمة بل منطلق من عقل مستلب لا يهدأ له أوار . لقد كان الرجل إلى أوائل الثمانينات محرد محام لا يعرفه أحد غير أقاربه وأصدقائه وموكليه تقريبا ، ثم شرعت بعض الصحف اليسارية تنشر له المقالات والأحاديث التى تلمز الإسلام من طرف خفى ، وإن زعم صاحبها أنه إنما يدافع عن دين الله ويحلو وجهه الصحيح . ولست أعرف للرجل قبل ذلك أى إسهام فى مجال الفكر والكتابة ، فكيف يمكن أن تظهر فيه موهبة التأليف هذا الظهور المفاجئ بعد أن أصبح شيخا ؟ أيكون النبوغ قد هبط عليه دون سابق إنذار كما حدث مع النابغة الذبيانى والنابغة الجعدى والنابغة الشيبانى ، الذين تقول الروايات عنهم إنهم لم يبدأوا قرض الشعر إلا بعد أن تقدموا فى السن ؟ لكن هل من السهل انتلاع هذه الموضية فى حالة خليل عبد الكريم ، وبخاصة أن مقالاته التى ولج بها عالم التأليف ليست لها قيمة تذكر

لا فى أسلوبها ولا فى مضمونها ولا فى بنائها الفكرى ، إذ يستطيع أن يكتب مثلها أىُّ إنسان يمكنه أن يتناول القلم ويُحْرِيَه على الورق ، ثم انقلب الحال فجأة كرّةً أخرى وأحدث تصدر باسمه كتبٌ أسلوبُها مختلف تماما عن الأسلوب السابق الذى لا يتميز بأى شىء يلفت الأنصار ، كما أنها محدومة من ناحية المصادر والمراجع ، وفيها طنطنة وعرور مدوِّيان ؟

هذه مسألة يصعب حدا حدا هضمها ، فالمعروف أن الخصائص الأسلوبية لأى كاتب لا تتحول هذا التحول السريع الحادّ الذى ينفصل فيه الحاضر عن الماضى تماما بحيث لا يصدِّق الناقد الأدبى أن هذا الأسلوب الجديد هو لصاحب ذلك الأسلوب القديم نفسه

والأسلوب الجديد الذى صيغت به المؤلفات التى تحمل اسم «خليل عبد الكريم» يأخَرة هو أسلوب بلغ الغاية التى لا غاية بعدها فى الحذلقة السمجة الثقيلة . فهو يَعِجّ ، وبخاصة فى الكتاب الأخير الذى نحن بصدده هنا «فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين»[1] ، بمئات الألفاظ والصيغ الميتة التى لا تكاد تعاوق نطوق المعاجم والتى

(١) ط ميريت للنشر والمعلومات / ٢٠٠١م . ويقع فى نحو ٤٢٠ صفحة .

لم يكن الشعراء القدامى أنفسهم يستعملونها إلا فى الندرة الشديدة. كذلك يحرص صاحب هذه الكتابات على التقاصح بكثرة الجمل والعبارات المترادفة التى لا تضيف جديداً إلى ما تقوله الجملة أو العبارة الأولى . إن الترادف فى يد الكاتب البليغ يزيد المعنى وضوحًا والانفعالَ حرارة بل التهابا ، أما فى حالة الكتب المذكور عليها اسم «خليل عبد الكريم» فهو ترادف تَلَحِّيٌ خانق . ويبدو لى أن هذه الكتب، بعد أن يتم تأليفها كسائر الكتب التى يؤلفها عباد الله ، يُعْهَد بها إلى شخص آخر يتولى تنحية الكلمات البسيطة والصيغ الشائعة ويضع مكانها الأوابد والشوارد اللغوية التى لا توجد حتى فى كتابات الأدباء المشهورين بتنكُّب العاديّ من الأساليب كحميد الحميد الكاتب وابن المقفع والحاطب وابن العميد والمعلوطى والرافعى مثلا ، إذ إن هذا التنكب من جانب أولئك الكتاب إنما هو نزع طبيعى عندهم ، أما فى الكتب التى تُنْسَب إلى خليل عبد الكريم فهو أمرٌ لا أظنه إلا مصنوعًا صناعةً ويَتَمْ ، كما قلت ، فى مرحلة تالية بعد التأليف تُمَحَّص فيها معاجم اللغة الخاصة بالمترادفات والمتضادات وما أشبه

ولست أحسب أحدا يمكن أن يخطر بباله أن خليل

عبد الكريم من العلم باللغة وعزيمها إلى هذا الحد . إن ثقافة الرجل المعروفة وكتاباته السابقة ترفض خطور هذا الفرض على البال وفضلا قاطعًا ناتًا ، فهو ليس رؤبة بن العجاج ولا أبا العلاء المعرى ولا بديع الزمان الهمدانى ولا الحريرى بل هو هو . ويؤيدنى ثقة بهذا الحكم أن الكتب المعروّة إليه تعانى من كثرة الأخطاء النحوية والصرفية ومن ركاكة الأسلوب رغم ما هو معروف من خضوعها للتصحيح اللغوى فى المطبعة . فكيف بالله يستقيم فى العقل أن يجتمع فى شخص واحد كلُّ هذه المعرفة بغريب الألفاظ والصيغ وذلك الجهلُ بأصول النحو والصرف ؟ وبعد ثم فإنى أرى أن هناك أكثر من يد تشترك فى تأليف هذه الكتب . وبالنسبة للكتاب الأخير بالذات فإنى أستبعد أشد الاستبعاد أن يكون مؤلفه مسلمًا ولو بالاسم ، إذ فيه من الإساءة الجارحة للنبى ومن التفسيرات العجيبة لنعوته صلى الله عليه وسلم ما لا يمكن صدوره إلا من مستشرِّ متعصب مطموس البصر والبصيرة ، وهو ما عرضنا الأدلة عليه فى الصفحات التى بين يدى القارئ الكريم . ونرجو ألا نكون مخطئين !

ومن الأمثلة على التحذلق بالألفاظ اللغوية فى الكتاب المذكور

هذه الكلمات الثلاث التي جعلها المؤلف عناوين لبعض فصوله ، وهي « قَيْدَام » ، التي لا يعرفها إلا من حمل هَمَّه التنقير في كتب غريب اللغة . والمقصود الذي كان العرب وأهل الكتاب يتناقلون مقدمه . وهو جهل وتخليط مبين ، إذ « القيدام » هو « القُدّام » لا « القادم المنتظر » كما أُرادت به حذلقة الكاتب المعيصة التي طمست على بصيرته وبصره فحذف اللفظ الصحيح واستعمله بدلا منه .

ثُمّ « الهِنْدَوْز » ، التي لا أدري أي شيطان سخيف نفث في رُوع مَنْ حَلَبَها إلى الكتاب . وقد أبَى الله إلا أن يفضح جهل جالبها الذي أخذ يتعالم علينا قائلا إنها تأخذ صيغة واحدة للمذكر والمؤنث على السواء . لماذا ؟ لأنها ، كما قال ، مثل « نَشُور » و « فَرُوح » ، اللتين لا تدخل عليهما تاء تأنيث في حالة استخدامهما وصفاً للمؤنث . أرأيت جهلاً مثل هذا الجهل ؟ ترى ما علاقة « هِنْدَوْز » (ووزنها العصري « فِعْلَوْل ») بـ « نَشُور » و« فَرُوح » (ووزنهما « فَعُول ») ؟ إن المتحذلق الجاهل يريد الإشارة إلى ما تقوله كتب الصرف من أن أية صيغة على وزن « فَعُول » بمعنى « فاعل » لا تأخذ عند التأنيث « تاء » بل تُكْتَب بنفس الصيغة تذكيرا وتأنيثا . فسأله ما دخل « هِنْدَوْز » في هذه القاعدة ؟ ثم يأبى الله إلا أن

يكشف سوأة ذلك المتحذلق ثانية حين علّق بأنه لهذا السبب « يعتبر وَصْفُ سيده نساء الأرض بـ « الهندور » لا «الهندورة» صحيح »[1]، إذ رفع كلمة « صحيح » رغم أنها حالٌ حقُّها النصب . وعلى كُلٍّ فصحة « الهندور » هنا هي «الهندورة» بالتاء رغم أنف الجهل المتنطع[2].

والمقصود بـ « الهِنْدُورة » السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها ، التي يزعم من يحترقون من أهل التشيع غلاً وحقداً على الإسلام بسبب ما قَسَمَ من ظَهْر دينهم وفضح عوراته القاتلة أنها هي التي « انقطت » محمداً عليه السلام وهندرته وجعلت منه نبيا بعد أن كان رجلاً خاملاً لا ثقافة لديه ولا حيرة له بالحياة ولا بالناس

---

(١) ص ١٠٩ .

(٢) ومثلها في ذلك « الهِلْوف » (الكذوب) و « الهِلْوفة » ، و « البِرْدَوْن » (الفرس عسير الأصيل) و « البِرْدَوْنة » ، و « السَّوْر » (القط) و « السَّوْرة » ، و« الخِنْوَص» (ولد الخنزير) و « الخِنْوَصة » . إلخ وكلها ، كما ترى ، تدخل عليها تاء التأنيث ويقال للمرأة الضخمة المرتفة الأرداف « هِرْكَوْلة » بتاء التأنيث أيضاً ، وقد تكررت في الشعر الجاهلي ، ومنها قول الأعشى « هِرْكَوْلة فَنَقٌ دَرِمٌ مِرافقها » .

وأفكارهم ومعتقداتهم ! ولكن هل راعى المتحذلقُ القاعدةَ الصرفية التى ألمح إليها ؟ أبدا ، فها هو ذا يُدْخِل على صيغة « فَعُول » (بمعنى « فاعل ») تاءَ فى حالة التأنيث فى العبارة التالية المتفيهقة الثقيلة « ولو أنهم قرأوها قراءة مستأنية ، وطالعوها مطالعة صَبُورة ، ودرسوها على رَيْثٍ ، ولَبَدُوا بين صفحاتها ولم يَمُرّوها لما كانت بهم حاجة لطرح تلك الفكرة الحالمة ، فإن الأمر أهون من ذلك ، ولا يحتاج إلى هذا التمحل ، ولا يستدعى ذلك التكلف ، ولا يستنفر ذلك الاصطناع ... » إلى آخر هذا السيلان المخاطى (١).

أما العنوان الثالث فهو كلمة « اليعسوب » ، التى من معانيها فى الاستعمالات القديمة المطمورة فى طيات المعاجم « الرئيس الكبير » كما يقول من اختار هذه الكلمة عنوانا لأحد فصول الكتاب ، جاهلاً أنها إذا استُعْمِلت الآن (وهى لا تستعمل إلا فى علم « الأحياء » عند الحديث عن النحل وعسله) فلا تعنى إلا « مَلِكة النحل » . وملكة النحل هى بطبيعة الحال أنثى ، وإن ظن العرب القدماء أنها ذَكَرٌ لضخامتها كما جاء فى « المعجم الوسيط » . ولهذا السبب لم

(١) ص ٢٦

يفسرها « المعجم العربي الأساسي » مثلا إلا بأنها أنثى النحل التي تبيض . أي أنّ الكلمة هي ، في الواقع ، للأنثى لا للذكر ، لكن التعالُم الغبيّ يوقع صاحبه في المزالق والمهالك ، فقد لقّب بها حالُها إلى الكتاب ورقةَ ابن نوفل لأنه ، حسب إفكه ، هو الذي تولّى كبْرَ تثقيف محمد عليه السلام أو « تلْوِيحَته وصنْفَرَته وتلميعه » بعْبَعَة «تصبيعه» سبا (وهذه هي ألفاظ المبشّر الحقود الذي وراء ذلك الكتاب) . والحق أن هذا المبشّر (لا ورقة) هو « اليعسوب » ، فقد كان ورقة رجلا شريفا سيلا عفّا للحق عندما استبان له أن محمدا بن عند رب العالمين فآمن به وأعلنها مدوّية ، وهو الشيخ الطاعن في السن ، أنه إن امتد به العمر فسوف يبصره ويؤازره ضدّ سفهاء قومه الذين سيكذّبونه ويؤذونه، ولم يكن كهؤلاء المبشّرين الذين يليق تماما بهم أن يُسمّى الواحد منهم « يعسوبا » بلمة العلم الدقيقة ! لقد كانت العرب تطن ، ولها عذرها من قلة العلم آنذاك ، أن اليعسوب هو ذكر النحل الذي يساعد إناثه ، على حين أن اليعسوب هي ، في واقع الأمر وحقيقته ، الأنثى التي يطْرُقها كل الذكور ولا عزاء لياسيب التشبير !

ومن الأمثلة الأخرى على تاصّره السمج بالغريب استعمالُه صيغة

«الضَّرُوب» بدل « الضَّرِيب » (بمعنى « الشبيه » في قولنا : « فلان لا ضريب له »)[1] . وهو استعمال خاطئ يدل على أن الأخير أعمى البصر والبصيرة كما سلف القول ، ويتصدى لما لا يُحْسِن وليس أسخف ولا أسمج ولا أعث ولا أنرد من قَدْم جهول يتعالم على عباد الله ولا يلزم حدوده فيتصرف على قدر حجمه الضئيل ، إذ «الضَّرُوب» هو « الكثير الضَّرْب » (سواء الضرب المعروف أو غيره) ويبدو أن كاتبها المستخفى كان ، وهو يستعملها ، يتقافل مهتاجاً طالبًا « ضَرُوبا » حتى يهدأ ويسكن . كذلك أضحكني عرام المشر المستخفى بترديد كلمة «السوداء» (التي أسقط ألفها في عشرات المواضع وجعلها «سودا» ، ولا أدري أي حَبَل أصابه فجعله يلزق هي هذه ويترك تلك) ، وكذلك كلمة «المَرَة» بدل « المرأة » أو «السيدة» كما يقول المهذبون الأفاضل وهو ما يذكرني بشيوعي سافل جمعتني به الظروف في السجينات مرة أو مرتين فألفيته كلما جاء ذكر سيدة كريمة قال « المرة » فأفضيت باستغرابي لبعض من كانوا معنا وسألتهم عن السبب في إكثاره من ترديد هذه الكلمة .

---

(١) ص ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١٥ مثلا

فاسرى أحد الحاضرين ، وكان طريفا لبقا ، فقال « لأن السعيد مرّة أس مرّة ، ويؤتى من ـــ » ، فأحدثت بهذا الردّ الذى لم يكن لى فى حسبان ، وظننتُ أنه قد تجاوز المدى حربا وراء السحعة ، وكم للسخاصين من تخاورات ، بيّد أن جاره سارع إلى طمأنتى قائلا : « لا تُرَعْ . إنه يسجع » لكنه لا يقول إلا حقّا . فالأبعد «مفعول فيه» كما يقول النحاة » ، وهو ما أكده الحاضرون جميعًا ، ومنهم الشيوعى ، ومنهم ذو الدين ، ومنهم من لا يهتم بشيوعية ولا دين ، فعرفت أن الأمر كما قال .

ومن الحذلقة العفّة الباردة أيضاً قولُ المبشّر المستخفى عن الأنظار : « من المحال أن ينصف المفتطَر (أى الذى المفتطر) بأنه مُهْتَلِس العقل أو هِجْرِع أو ذو رعارة »[1]. والله لا مهتلس عقل أو هجرعًا ذا رعارة إلا هذا الأرعر وأمثاله ! وقد قلت « الأرعر » عن عمد جريًا على أسلوب إخواننا الليبيين الذين صدر فى بلادهم منذ سنوات كتابٌ له صلة بالكتاب الذى بين أيدينا مما سيأتى حصره بعد قليل ، وذلك حتى تكون الألفاظ مناسبة لسياقها ، فقديما قال أهل اللباغة إن لكل مقام

(١) ص ٣٨

مقالا . وذلك الأوّعر ، إدلالاً منه بمقدرته على الإتيان بهذه الغرائب المضحكة ، قد وضع ، عقب كل نمط من الأنماط الثلاثة ، شَرْحَه بين قوسين كعادته المستوحَمَة ، وهو استعراض مَرَضِيّ يسم على فقر صاحبه فى اللغة ، وإن ظن أنه يداريه بهذه الألاعيب الطفولية ، شأنه شأن العربان الـ ... ، ويحب التحميرا وهو ، فى هذا ، يقلّد الأستاذ محمود شاكر ، ولكن أنى الثرى من الثريا ؟ وأين النكروش من النحل الهدّار ؟ لقد كان شاكر عالما يغوص باقتدار فى بحر اللغة الزخّار ، أما ذلك النكروش القابع مستحميا فى الطلام فلاصقٌ بوحماته فى الطين . ثم إن شاكرا كان لا يذهب هذا المذهب الاستعراضى السهلوانى ، إذ لم يكن يورد من الغريب إلا ما كان له نكتة بلاغية ، فضلا عن أن عربيه دابى القطاف حفيف على القلب ويأتى فى حوّ أسلوبى رائع ، فكأنه مُجَاجُ النحل ، أما عبارةُ « مهقلس العقل مخرع دو زعارة » وأمثالها فتضعُ رائحة نتنة خبيثة تدل على أن مَخْرجها ومَخْرج العذرة واحد !

أما قوله مرارا . « الأيْئة » عوضا عن « الهيئة » فلست أستطيع أن أجد لها تفسيرا إلا أنه قد ارتدّ « نوتو » لا يقدر على نطق الهاء ،

«يحميه ربى من الحاسدين» كما كانت تقول الحاجّة شادية قديما فى أغنيتها المشهورة !

ومن دواهى جهله الأطمّ قوله ، عند كلامه عن الرسول الكريم وحُسْنِ منطقه وفصاحة لسانه ، إن ميسرة قد تحدث إلى خديجة عن « رهافة مِذْرب محمد »[1] ، يقصد رهافة لسانه صلى الله عليه وسلم . أعلم يجد إلا كلمة « مِذْرب » ، التى تدل معظم اشتقاقات مادتها على سلاطة اللسان والبذاء ؟ إن من المفسول حدا بل من اللائق تماما أن يقال عن هذا المشرّ السعيه الذى حرمه الله من حسن احتيار اللفظ إن له « مِذْرَبا » يَذْرَب به ويَسْلَح ، لأنه فى الواقع ليس له فى وجهه فم كسائر عباد الله بل استٌ يَسْرط بها ويَحْرَأ ، أما سيّد الخلق فشىء آخر . والكتاب تعُدّ مفهم بهذه الاستعمالات السخيفة البادرة ، ولكن يكفى هذا ، وإلا فلن ننتهى

والآن إلى عثاثته فى مجال الترادف ، وهذه بعض أمثلة عليها لا غير . « فلْنَدْعِ الكذب والتزييف والدَّجَل جانبا ، ولنقدّم قرصا آخر ، وهو أن أحدهم أو بعضهم أخطأ فى الفهم أو تسرّع فى الاستنتاج أو

---

(١) ص ٢٨٣ .

شطٌ فى التقدير ففهم السكوت موافقة ، والتريث إجابة ، والتمهل قبولا ، وإن باقيهم لا يُعْقَل أن يحيشوا على هذه الشاكلة أو يمسحوا على ذات المنوال أو ينهجوا نفس الطريق » [1] فانظر كم مرة فى هذه الأسطر القلائل قد افتعل الترادف افتعالا دونما أدنى ضرورة ! «لم تر حريرة العرف له مثيلا ، ولم تشهد له ضريبا ، ولم تعاين له شبيها أو ندّا»[2] . « وهذا محض الخطإ ، وأسّ الحطّل ، وجرثومة الانحراف ، ومعدن الضلال ، وركيزة الفساد » [3] . « أوقع السابقين واللاحقين والخلف والسلف فى هذا المرج ، وساقهم إلى هذا الخلط ، ودفعهم إلى هذه الحريقة » [4] « لا يمارى فيها إلا شكِس ، ولا يعارضها إلا مناكف ، ولا يشكك إلا معاند ، ولا يقدح فيها إلا لجوج ، ولا يعيبها إلا يَلَنْدَد » [5] آمنت بالله ، الذى لا تنقضى عجائبه والذى أرانا فى آخر الزمان كيف أن الامت الذى لم نكن

---

(١) ص ٦٥

(٢) ص ١٢١

(٣) ص ٢٥٩

(٤) ص ٢٩١

(٥) ص ٣٧٦

نعرف له من وظيفة إلا أنه يصرط ويَخْراً قد أصبح وأضحى وأظهرَ وأمسى وبات وصار يتكلم ويأتي بهذه الدُّرَر أقصد « العُرَر » . والأمثلة أكثر من الهم على القلب ، إذ لا تخلو منها فقرة بل لا تكاد تمرّ عينا جملة إلا في الشاذ النادر .

ولكن كيف يستقيم هذا التحذلق بغرائب اللغة مع الجهل بقواعد النحو والصرف التي تفضحه الأمثلة القليلة التالية ؟ . « بيْدَ أنه متى يغيض شبابا وقوة وحيوية وسيما قسيما » [1] (وصوابها . «وسيم قسيم» لأنهما النعتان الثاني والثالث لـ « متى » ، أما النعت الأول فهو « يغيض شبابا ... ») ، و « يقع ... تحت تأثير عمائه .. ، إذ تُعْلِنُ له ... » [2] (وصوابها « يُعْلِنُ » ، وهي غلطة لا يقع فيها إلا من سكّر اللسه بصره عن قواعد لغتنا الجميلة) ، و «يسح أصدقاؤه في إنشائه عن عزمه»[3] (وهي كسابقتها تدل على جهل مطبق بلغتنا العتيدة ، فالجهلاء هم وحدهم الذين لا يستطيعون التمييز بين « نَبَى » ، أي « طَوَى » أو « ردَّ » وما إلى ذلك ، وبين

(١) ص ٢٥ .

(٢) ص ٥٤ .

(٣) نفس الصفحة .

«الفتى» ، أى أشاد بذكر المحاسن » ، و« لا تعْصِى له أمرا (يا فلان)»[1] (وصوابهما : « لا تعْصِ » بحذف الياء من آخر الفعل على النهاء للأمر) . وفى الكتاب من هذه الأخطاء الفاضحة الكثير !

على أن المبشِّر الجاهل المستخفى ، بدلاً من الاشتغال بستر سوأته درْءًا لمزيد من الفضائح أو على الأقل بدلاً من السكوت خزيا ، يرفض إلا أن يزداد تصببه من الخزى والعار ، فهو يسعى إلى حتفه بحوافره فيتخذ سَمْت العلماء الذين يتتبعون أخطاء الكُتّاب ليصوّبوها محاولاً أن يصنع صنيعهم قائلا إن صواب عبارة « هل كانا مذْهبيْن أو أنهما كانا جناحين ؟ » هو « كانا جناحان »[2] . وهذا الجهل الأعمى يتبدى أيضًا فى قوله فى الصفحة التى تلى ذلك : « والفِرْقة بأسرها تعتبر فى نظر بولس وتَّمه هراطقة ومارقون » (بدل « مارقين » لأنها معطوف على المفعول الثانى لـ « تُعْتبَر ») ، وكذلك فى الجملة التالية الموجودة فى الصفحة التى بعدها : « هذا ما يؤكده علماء الفرنجة المدققين فى تواريخ الأديان » (بدلا من « المدققون » ، التى

---

(١) ص ٢٥٢

(٢) ص ١٧٠

هى بعث لـ « علماء الفرنجة » المرفوعة على الفاعلية » ، وكذلك أيضاً فى قوله « ما لك مسرع ؟ ما له مسرور ؟ »[1] « بدلا من «ما لك مسرعا ؟ ما له مسروراً ؟ » بالنصب على الحالية » .

وكيلا نطيل على القارئ أسارع فأختم بالتنبيه على هذا الخطأين اللذين يدلان على أن صاحبنا قد بلغ من الجرأة الجاهلة مبلغا لم يصل إليه أحد قبله ، ولا أظن أحدا بعده سوف يصل إليه فى أى يوم من الأيام . إنه يقول عن عبادة بعض العرب للأشجار : « وقد درج عرب ما قبل الإسلام على تقديس الأشجار بل تعبدهم إياها »[2] . وواضح مدى فحش الجهل فى استخدام كلمة « تعبد » ، التى لا تعنى فى هذا السياق إلا أن العرب كانوا يتخذون الأشجار عبيداً لهم أو كانوا يدعونها لعبادتهم . وهذا شىء مختلف بل مناقض لما قاله المتشدق البغيض

كما يقول عن حديجة رضى الله عنها إنها قد « تيقنت . على بكْرة أبيها نفسها من فصاحة محمد صلى الله عليه وسلم أيام أن

---

(١) ص ٣٢٢ .

(٢) ص ٢٤٧ .

كان يشتمل فى تجارتها قبل أن يتزوجها »[1] فهل مَنْ يدلّس على معنى عبارة « على بكرة أبيها » هنا ؟ إنما نقول مثلا عن جماعة من الناس : « جاؤوا على بكرة أبيهم » ، أى جاؤوا كلهم لم يتخلف منهم أحد ، أما أن يقال عن شخص واحد إنه « جاء على بكرة أبيه » فهذا هو اللّه بعينه . فإذا حتمنا إلى قول صاحبنا عن حديجة رضى الله عنها إنها قد « تيقنت ... على بكرة أبيها بمسها ... » فهذا بكل تأكيد شىء وراء اللّه والعتّه لا أعرف كيف أسمّيه لأن أصحاب اللغة لم تمرّ عليهم مثل هذه الحالة العقلية فلم يضعوا لها لفظا يدل عليها .

والكتاب ، فضلاً عن هذا ، يفيض بقلة الأدب والوقاحة المحرمة التى لم يصادفنى مثيل لها من قبل . وهذه الوقاحة عوان على ما فى قلب الكاتب المستخفى وراء غيره من غِلٍّ غَلِيل على الإسلام ورسوله ورموزه الكريمة . وأرجح الرأى عندى ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، أن هذا غلٌّ تشيرى ، فلست مستطيعا أن أتصور أى متعصب إلى الإسلام يمكن أن تواتيه نفسه على هذا الإجرام الذى تخطّى كل

(١) ص ٢٨٣ .

الحدود والسدود ، إذ لماذا يكره محمدا من تلقاء نفسه من ينتسب إلى دينه حتى لو كان في الحقيقة كافراً به ؟ لنقرأ معاً هذه السفالات والبذاءات ، وليغفر الله لنا .

ـ « هذا الكتاب يقدم رؤية جديدة نرعم أنها غير مسبوقة لحل هذا اللغز الذي ملأ الدنيا وشغل الناس » [١] . يقصد باللغز سوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاعلا منها مجرد ضرورة سوف يتسلى « نيافته » بحلّها ، وهي التي قلبت موازين التاريخ والحضارة ومسيرة البشرية ، فيأتي هذا المأفون ويسميها « لغزاً » .

ـ « يدأنا مع محمد قبل أن يلتقي أبوه بأمه ، ثم وهو جنين في بطن أمه ، ثم صاحبتاه ليلة مولده ، ثم وهو مولود ثم طفل ثم صبي ثم شابّ حتى التقطته سيدة قريش » [٢] . فانظر السفالة التي يتحدث بها الكاتب الوقح عن سيد الأنبياء وكأنه صبي مشرد يهيم على وجهه في الشوارع دون أهل أو مأوى . أهذه لغة يُتحدّث بها عن مثل محمد عليه السلام حتى لو لم يكن نبيا رسولا ؟ إن المسألة هنا

---

(١) ص ١٨

(٢) نفس الصفحة

ليست مسألة كفر وإيمان أو حرية فكر واعتقاد بل مسألة خلق وبذاءة وقلة أدب ! ولا أدري ما الذي أصاب المسلمين فأصبحوا يتقبلون قراءة مثل هذا الكلام دون أن تميد بهم الأرض ميداً ! أليس هناك رجال شاربون من لدن أمهم يغارون لمحمد وكرامة محمد وعرض محمد ؟

ـ « إن هاجس قيام شابة بكر أو ثيب مثلها في بكة أو ما حولها بمثل الحبيب المصطفى ونكاحه أرق حديحة وطهر اليوم من عيسيها الاثنتين» [1] . إني لا أصدق عيني وأنا أقرأ هذه الألفاظ الشوارعية التي لا تجرى إلا على ألسنة الشالين والحشاشين وأشباههم ومثل ذلك قول الكاتب قبل قليل على لسان خديجة عن محمد عليه السلام « من الكرم اللازم أن أنكحه بل وأسارع حتى لا تتشه منّى إحدى عذراوات أو أيامى قريش » أهي سيرة للنبي عليه السلام نحن أم في عُرْوَة حشيش بين حماعة من الملطجية والقوادين والقرّادين وشرّاطي الحيوب ؟

ـ « تبيّن لنا أن سيدة قريش (أي خديجة) حفّ ريقها وحميت قدماها وداحت السبع دوحات حتى وافق إمام الأولين والآخرين

(١) ص ٣٨ .

(يشير إلى سيدنا وسيّده وسيّد آبائه وأجداده رغم أنهم لا يستحقون هذا الشرف) على حظّيتها ومكانتها » (١) .

ـ « إن هذا الحشد القوى والتحويش المضاعف والتعبئة المخططة من قِبَل سيدة النساء إزاء البشير النذير وهذا الحصار المحكم له حتى رفع الراية البيضاء وسلّم لها بطلبها ورضى أخيراً بمكانتها إياه ... لذلك كله علة ممهدة لا توأم لها ، وهى أنه القادم الذى طال انتظاره » (٢)

ـ « إن سيدة قريش حينما تُضَاعف الجُعْل أربعة أضعاف فحمد فيها بذلك تَلَمُّس ما قد يعتور قلب محمد من ندوب ... عندما تطير منه أم هانئ لمّا تفلح سيدة قريش فى مكاحمه » (٣) . ودعنا من الاستخدام الجاهل للحرف « لمّا » مع المضارع بمعنى « عندما » ، ولنركّز على هذه اللغة الشوارعية !

ـ « أما من جانب الخاشع (أى محمد ، استهراءً به صلى الله عليه وسلم كما سيتضح فورا) فلا شك أن القارئ لم يفته أنه أصبح

(١) ص ٣٩ .

(٢) ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٣) ص ٤٨ وأم هانئ هى أخت على بن أبى طالب ، وكانت هناك نية فى أن يتزوجها الرسول عليه السلام فى شبابه ، ولكن لم يتمّ الأمر

مثلا فاذاً في المطاوعة والملاينة « اجلس على فخذى » ، يجلس « تعال في حجرى » ، يأتي . «ادخل بين قميصي وجسدى» ، يدخل » . وهذا له دلالة لمن لديه ذرة من ركاكة أو مُسكَة من فطانة على أن الخاضع عندما ينظر إلى زوجته بنظرة الابن إلى أمه الحبيبة الذى يرى سعادته في برّها ومهاودتها وأن ما تأمر به واجب النفاذ العاجل لأن الوالدة الحنون لا تشير إلا بكل ما هو في صالحه ولفائدته حتى ولو لم يعرف كنه الطلب ولا مغزى الأمر » (١). كيف يسكت المسلمون يا إلهي على هذه الإهانات لنبيهم ؟ هل أصبح يحرى في عروقهم ماء بارد بدلا من الدم الحار الذى يغلى في عروق كل من عنده ذرة من كرامة وكبرياء ؟ هل بلغ بهم الهوان أن أمسى كل من هبَّ ودبَّ يصول عليهم ويتبرَّز وهم متبلدون لا ينبض فيهم عرق ؟(١)

- « وفي وقت من الأوقات اجتمع محمد بعدد من صحبه في حجرة عائشة على غَدَاء أو عَشَاء ، فأرسلت زوجةٌ أخرى هي صفية بنت حُيَىّ طَعَامًا فيه طعام . ونظرا لأنها يهودية ومن المِلّة بين قومها

(١) ص ٩٣ - ٩٤ .

فهى على درجة حضارية أرقى ، ومن ثم تحيد الطبع » [1] ويُغْمِض الإسلام المذهب هو الذى سوّل للمبشّر الكروش أن يعصر اليهودية على الإسلام ، فاليهودية (متمثلة فى صفية حسبما توهّم الحاقد الجهول رغم أن صفية ، رضى الله عنها ، قد أسلمت وتبرأت من يهوديتها) أفضل عنده من الإسلام (متمثلا فى عائشة ، التى يلمزها بطريق الخالقة من خلال وصفه لصفية بأنها من عِلْيَة القوم) . يريد أن يقول إن عائشة (التى يسميها بعد أسطر « بنت أبى بكر » رغبة فى تحريجها لنا نحن الذين نؤمن عن يقين أن طُهْرا من أطهار قدمها أشرف ألف مرة من رقة كل طبع لئيم بليغ الدرك الأسفل فى الدناءة ولؤم الطبع والانحطاط) لا تُسامِى صفية فى المركز الاجتماعى . يعنى أن أبا بكر الصديق أقل فى نظر الحقير المنحط من اليهودى حُيَىّ بن أخطب عدوّ الله ورسوله ، وأن عائشة أقل تحضرا من صفية ، التى تستطيع الطبخ المسلّك بالصلصة والسمن البلدى واللحم على حين أن بنت أبى بكر لم تكن تحسن إلا صنع العصارة بسمن «النحلتين» ! أرأيتم قلة الأدب كيف تكون ؟ على أن الوقاحة الجِلْفة

---

(١) ص ٩٨ .

لا تقف عند هذا ، إذ مضى المتطاول السفيه فوصفها بعد أسطر بـ « الروحة الغدورة »[1] ، وذلك بعد أن عرَّج في الطريق على أمهات المؤمنين وألحقهن بلقب « نسوان صاحب النعليين » . وهذا هو الأسلوب الذي يحاربون به الإسلام ! إنه أسلوب المومسات !

ـ « وهناك أقصوصة أخرى أو أقصوصتان أُخريان ، وهما تعرِّض مرتين (يقصد امرأتين) هما فتيلة بنت نوفل وعاطمة بنت مر الخثعمية لعبد الله أبي محمد ليركبهما »[2] . ترى ماذا يمكن أن نقول في التعليق على هذه البذاءة سوى أن كل إناء يترشح بما «يُدْعَل فيه» ؟

ـ « وعسى الوقت قد حان لتطرح أمام ناصرة القارئ بعضا من شواهد حواوف . الولد المبروك »[3] أتدرى أيها القارئ المسلم مَنْ ذلك الولد المبروك ؟ إنه سيِّك محمد صلى الله عليه وسلم ! فانظر إلى المدى الذي وصلت إليه حرأة أعداء الإسلام في إهانة سيك وهي

---

(١) ص ١٠٠ .
(٢) ص ٢٠٦ .
(٣) ص ٢٠٧

عقر دارك مصر حارسة الإسلام ! وانظر كذلك إلى السلادة والجمود اللذين نتلقى بهما هذه الإهانات !

- « هي (أي حديجة) تزوجت مرتين أنجبت فيهما أولادا وبنات ، وهو (أي محمد) لم يدخل دنيا » [1] ، هكذا بلغة المساطيل !

- « أعرقته (أي أعرقت خديجة محمدا) بطوفان حبها وألبسته الحرير وأطعمته الخمير فصار لها عاشقا كما قال وكيف لا يعمل وهي قد بقلته بقلة لم يحلم بها محرّد حلْم من عسيب (أي أحبر) يكدح من مكة إلى حباشة ومن قرية القداسة (أي مكة) إلى الشام لقاء بكْر أو بكرين ، إلى واحد من السادة القطاريف الذين يلبسون أغلى الثياب وأرقها ويتلذذون بأشهى الأطعمة وأحلى الأشربة ، ووكّلته (أي دعمته) إلى التجربة (أي تثقيفه وتدريبه وإعداده لتصييعه نبيًا)[2] ليرتع فيها على مهل ويمرح على ريث » [3] . هل هناك لؤم ووقاحة وقلة أدب أشد من هذا ؟

(١) ص ٢٨٩

(٢) انظر ص ٣٠٣

(٣) ص ٣٠٤

- « ومن ناحية أخرى فقد داق (محمد) الحرمان وكابد المسغبة وكواه الفقر ، فلا يسكّن روعه ويهدئ باله ويطمئن نفسه ويريح خاطره سوى أن يوضع المال جميعه بين يديه (أى تضع خديجة كل ما لها تحت تصرفه) » (١). ترى هل يستطيع أى وغد رجيم أن يقول شيئا من هذا الكلام ، ولو عشر معشاره ، فى حقّ حاكم بلده ؟ إن مثله لا تواتيه الجرأة والصفاقة إلا فى حق الرسول الأعظم لاطمئنانه إلى أنه لا حياة لمن يهيبهم ويبعث على رجومهم من المسلمين ، إذ هو يعرف أنهم قد فقدوا كل نخوة فلم يعودوا يغضبون لأى شىء ! أقولها مرة أخرى وبالفم الملآن . « فقدوا كل نخوة فلم يعودوا يغضبون لأى شىء ! »

- « الذى ترجّح أنه (أى الرسول) فى البداية عَضْلَج (عن الشقدم لخطبة خديجة) وامتنع واحتجّ إلخ ، ولكن الطاهرة (أى خديجة) بما لها من كَيْسٍ وفطانة ولباقة وتجربة فى معالجة الْيُعُول استطاعت أن تثنيه عن موقفه . وتأخذ منه صكّ القبول وشارة الرضى وعلامة الوفاق » (٢). أىّ امتهان يا إلهى لأسمى علاقة روحية

(١) ص ٣٠٩

(٢) ص ٣١٠

فى تاريخ البشر ! وما هذه اللعبة الوسخة ، « عَصْلَجَ » تحريفها فى معالجة السعول ، صلكَ القول » ؟ أين نحن يا ترى ؟ وممَّن يتكلم القَدْم العبيّ ؟ إن العِلْمَ التشيرى لا يتركه ينعم بهدوء أبداً بل يبقيه دائماً متمرّغاً سليط اللسان همّاماً عيّاباً عمّازاً لمّازاً فى حق الرسول الكريم وروحته الطاهرة الشريفة اللّذيْن لا يعرف النكاريش الأمتان كيف يتحدثون عنهما بما ينبغى لهما من تجلة واحترام لأن وحل المجارى الذى يعيشون فيه ويأكلون منه قد أفقدهم الحسّ بما يليق وما لا يليق !

ـ « الذى حار الثقافة الدينية آنذاك (أى فى مكة عُشَيّةَ البعثة النبوية المشرّفة) هم نفر من النخبة القرشية ، أما الآخرون ، وهم العامة الذين يكدّون فى سبيل لقمة عيش حشب (= حبش) ، فلا يفكرون فيها مجرد تفكير، إذ هى بالنسبة إليهم ترف لا يقدرون عليه ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة عقلانية مجردة لا بد أن نتساءل أنّى لغنى صغير خرج بالكاد من مرحلة الطفولة واشتغل برعى الغنم ثم لما شبّ قليلا عمل أجيرا تجاريا سكّر من الإبل (يقصد الرسول الأعظم) ، أنّى له أن يحور ثقافة دينية أو ثقافة من أى نوع؟» [1]

(١) ص ٣١٨ .

يعنى بالعربى : كان جاهلاً تمام الجهل ، صفحة ذهنه « بيضاء من غير سوء » (كما قال الكاتب الوقح المستخفى بعد ذلك بأسطر) وعاميًا من الأوشاب الذين لا قيمة لهم فهم يرضون بما يقدمه لهم مستأجروهم من فتات . إنه ، فى نظر هذا «المركوب» ، ليس أكثر من بائع سريح يشتغل بأجر حقير عند إحدى معلّمات السوق الكبار ! وهذا ما عند المستشرين ومن يشايعهم فى وصف زعيم الرسل والنبيين أجمعين !

- « فَرْدٌ واحد من غير هؤلاء (أى غير ورقة وبحيرا وعداس ومرحيوس) أُسْنِدَتْ إليه عَلَنًا مُقَرَّرُ التحرية (يعنى خديجة) دورا صغيرا حقيقة أنه لا يعدو ما يؤديه كومبارس فى شريط سينمائى ، بيد أنه بكل المقاييس يُعَدّ مشاركة ، ولو أنها عجفاء هزيلة صامرة ناحلة ... والفرد الذى نعميه هو أبو بكر بن أبى قحافة »[1] . وهكذا تحولت خديجة رضى الله عنها ، على يد المبشّر اللئيم ، إلى مُخْرِجة أفلام ومسرحيات ، كما تحوّل أبو بكر إلى كومبارس . وليحمد الله ويقبّل يديه طهرا ليطن لأن الست المخرجة قد عطفت عليه وأطهرته فى فلمها الحديد المسمّى «تصبح بى» والذى سيضرب الدنيا ويقلبها

(١) ص ٣٤٣

رأساً على عقب وسيحقق إيرادات خرافية ذلك أنه فلم لم يسبق له مثيل كما يبدئ الكاتب ويعيد فى وصف كتابه إلا أنا لا نستطيع أن نقف مكتوفى الأيدى صامتين أمام هذا التهريج : فلا الفلم غير مسوق ، ولا هو يستأهل شيئا من هذه الضجة ، لأن المسألة فى الحقيقة لا تحرج عن أن تكون تدجيلا وقحا من النوع الذى يمارسه باعة اللبان الذكر فى الحافلات عندما يصيحون بأن لبانهم يحمر الخدود ، ويبرم الكعوب ، ويحلو الصدور . إلخ وعلى هذا فلا بد من فضحه ، ولكن خطوة خطوة فاصبر معنا أيها القارئ الكريم

إن فكرة الكتاب تقوم على أن ورقة بن نوفل وخديجة بنت خويلد قد التقطا محمداً من بين أهل مكة ليثقفاه « ويصنعاه ويقلوطاه ويلمعاه » (كما يقول المشر الحقير الذى وراء الكتاب) كى يصنعا منه نبيا ، إذ شاع وقتها بين العرب وأهل الكتاب أن هناك نبيا قادماً ، فأخذ الجميع ينتظرونه ، لكن ورقة وخديجة سبقا الباقين فاختارا محمدا اختيارا لما سمعا من الكرامات التى كان يقال إنها تحدث له منذ أن كان فى بطن أمه ، وأخضعاه لبرامج تدريبى قاس يتلخص فى

أن تقرأ له خديجة ما يترجمه ابن عمها ورقة من الإنجيل وتشرحه له وتطلب منه أن يحفظه ثم يعيد تسميعه كما يفعل شيخ الكُتّاب مع تلامذته ، بالإضافة إلى تفريغها إياه من همّ السعي وراء المعاش بوضع كل ما تملك من ثروات طائلة بين يديه يفعل به ما يشاء حتى تكسب قلبه فلا يفكر في غيرها ، مع دفعه إلى تمشّيان الأسواق والتجمعات التي يرتادها الرهبان والمبشرون من كل دين كي يحتك بهم ويتعلم منهم ما ينفعه مستقبلا في الوظيفة التي تعده لها هي وابن عمها إعدادا . وهو يؤكد أن ورقة كان قسّا لكنيسة مكة وما يجاورها ، كما كان كثير من أفراد قبيلته بني أسد نصارى ، ومنهم خديجة رضي الله عنها . ثم يمضي قائلا إنهما قد انتقلا بمحمد بعد ذلك إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الوحدة والابتعاد عن الناس بالتحنث في غار حراء وضحّته أثناء ذلك بكل ما يساعده على أن يرى في منامه الرؤى التي ينبغي أن تحدث للقادم المنتظر ، حتى وقعت الواقعة فعلا ورأى منامَ الغار الذي حيّل إليه أنه هو النبي الموعود . فعندئذ أعلنت خديجة للعرب ، وهي في غاية السعادة بنجاحها هذا الذي لم تكن تتوقع رهم ذلك أن يكون بذلك الشكل الساهر ، أنهم هم أيضاً قد أصبح لهم نبي كأهل الكتاب .

والكاتب ، فى أثناء ذلك ، يردّد أن دراسته هذه هى دراسة جديدة تمام الجدة ، إذ أتى فيها بما لم يسبقه إليه أى كاتب آخر ، وذلك فى غرور وانتفاخ وتعالم لم أعهده فى أى كاتب من قبل [1] لكن ما رأى القارئ الكريم إذا قلنا له إن هذا كله تدفّع كاذب وقع؟ فهذه الأفكار ، وغيرها كثير ، مأخوذة من كتاب صدر منذ اثنتين وعشرين سنة (بالضبط فى سنة ١٩٧٩م) فى لسان بعنوان « قَسّ وبنى » لمن سمّى نفسه على غلاف الكتاب « أبا موسى الحريرى » والواضح أنه بصرانى ، وإن كنت لا أدرى أهو لبنانى أصيل أم من المشرقيين الذين يعيشون فى لسان أو يترددون عليه . وهذا هو السرّ فى إشارتى التى مرت منذ صفحات إلى ذلك البلد حينما كنا بصدد الحديث عن عبارة صاحب « فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين » الخاصة باهتلاس العقل والرعاية ، فقد أردت بهذه الإشارة إلى أن أُلمح من بعيد لمن يعنيهم الأمر إلى أننى واعٍ جيداً لعملية النصب والاحتيال التى يقومون بها فى وقاحة بَجِحة ، و « كل لبيب بالإشارة يفهم » كما جاء فى الأمثال !

---

(١) ص ١٨ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ٢٧٩ ، ٣١٥ مثلا

فأبو موسى الحريرى هذا يؤكد أن الوجود المسيحى فى مكة بل فى الحجاز كله قليل البعثة السرية كان كبيرا [١]، وأن وجود صورة المسيح وأمّه بين الصور التى كانت مرسومة على جدران الكعبة وإبقاء النبى عليه السلام عليها يوم الفتح دون سائر الصور شاهد على ذلك[٢]، وأن ورقة بن نوفل كان قسّا فعلاً لقريش فى كنيسة مكة[٣]، وأن عددا غير قليل من قومه بنى أسد بن عبد العُزّى كانوا نصارى [٤]، وأن نصرانيته رضى الله عنه ليست هى المسيحية التى نعرفها بل كان من فرقة الإيبونيين الذين كانوا لا يعتقدون بألوهية عيسى ولا بصلبه [٥]، وأن الإنجيل الذى كان فى يده يظالعه ويترجم منه ليس هو الأناجيل التى نعرفها ، بل هو « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، الذى كانت جماعة الإيبونيين لا تعرف غيره ، وهو إنجيل متّى مطروحًا منه الفصول التى تتحدث عن ألوهية عيسى وما

---

(١) ص ١٧ .

(٢) نفس الصفحة .

(٣) ص ١٨ ، ٣٠ .

(٤) ص ١٦ .

(٥) ص ٥ ـ ٦ ، ١٩٠ ـ ٢١ ، ١١٢ ـ ١١٥ .

إلى ذلك مما لم يكن أولئك القوم يعتقدونه فى المسيح عليه السلام[١] ، وأنه هو الذى عقد قِران السيد صلى الله عليه وسلم على خديجة ، رضى الله عنها وأرضاها ، وألقى خطبة النكاح بوصفه كاهنا يقوم بطقوس الزواج النصرانية لا بوصفه مجرد قريب للعروس[٢] ، وأن خديجة كانت آنذاك على دين النصرانية وكذلك محمد عليه السلام[٣] ، الذى كان يدرك تمام الإدراك أنه لا يستطيع تطليقها أو الزواج عليها بأخرى طبقا لما تقضى به قوانين الكنيسة فى أمور الزواج[٤] ، وأن ورقة هو مُرتّب هذه الزيجة التى كانت شيئا غريبا على المجتمع العربى لمصادمتها للتقاليد[٥] ، وأنه أيضًا هو الذى درّبه على التأمل الروحى والصلاة فى غار حراء وتولّى إعلان سوئه على العرب[٦] ، فهو الأستاذ الذى علّم وأرسى الدعائم ، ومحمدٌ التلميذ الذى سمع وتعلّم ونشيّد البنيان ، أو بعبارة أخرى هما المربّى والربيب .

---

(١) ص ٢١ ، ٢٧ - ٢٩ ، ٣٤ ، ٦٩ ، ٧١ - ٨٢ ، ٨٦ ، ١٤٣ .

(٢) ص ٣٠ ، ٣٨ .

(٣) ص ٣٨ .

(٤) ص ٣٩ .

(٥) ص ٣٩ ، ٤٠

(٦) ص ٣١ .

فالقسّ تقل كلمة الله من العبرية إلى العربية ، والنبى قام بتعليمها إلى قومه بالعربية [١] ، وأن القسّ الأستاذ رغم هذا كان حريصا على التواري فى الظل خلف تلميذه بعيدا عن أنظار التاريخ [٢] ، وأن النبى التلميذ قد تفوق على أستاذه لما كان يتمتع به من ذكاء وعنفوان وجرأة وتحرك وإقدام [٣] ، وأنه عليه السلام قد عمل على أن تجيء رسالته مناسبة لظروف البيئة والمجتمع [٤] ، وأنه ليس هناك فى الحقيقة وحى سماوى بل مجرد تلقين بشرى من القس للنبى ، فهو وحى أرضىٌ القسُّ فيه هو أداة توصيل الرسالة لا جبريل ، إذ الإنسان كائن مختار لا آلة صماء تبلّغ ما يأتيها من السماء كما هو دون أن يكون لها دور تؤديه [٥] ، وأن القسّ وبنت عمه قد تعاونا بما لهما من حرية وذهاء وجاه ومال على إعداد محمد للرسالة القادمة وتدريبه وتهيئته باطنيا من خلال قراءة الكتب الدينية وتفسيرها له وحلوة ورقة معه

---

(١) ص ٦ ، ٨ .

(٢) ص ٨٦ .

(٣) ص ٦ ، ٦٣ .

(٤) نفس الصفحة

(٥) ص ٧ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٨٨ ، ١٨٦ .

شهرا كل عام في غار حراء حيث يصليان ويتأملان [١]، وأن هذه الخلوة لم تكن غريبة على طبيعة محمد ، الذى كان يميل إلى العزلة والابتعاد عن الناس فى حياته قبل ذلك [٢] ، وأنه اقتدى فيها بخلوة موسى وإيليا (على جبل حوريب) ويحيى (فى برّية الأردن) وغيرهم من الآباء الأولين [٣] ، وأن محمدا كان غاريا عن أية ثقافة دينية إلى أن التقى بورقة ، الذى ثقفه ودرّبه وربّاه وأعده كى يكون نبيا [٤] ، وأن عددا من كُتّاب السيرة قد حَمْحَمُوا بعلاقته بالقس ، وإن عملوا فى ذات الوقت على إخفاء الدور الذى نهض به الأستاذ فى تصنيع تلميذه[٥] ، وأن واقعة غار حراء لم تكن إلا رؤيا فى المنام لا حقيقة لها في الواقع[٦] ، وأنه الوحى قد فتّر مدةً عبءٌ وفاة ورقة بما يدل على أنه هو مصدر الوحى لا السماء ولا جبريل [٧] ، وأنه إلى جانب ورقة

---

(١) ص ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ .

(٢) ص ٤١ .

(٣) ص ٤٣ .

(٤) ص ٤٩ .

(٥) ص ٥٢ .

(٦) ص ٥٥ .

(٧) ص ٣١ ـ ٣٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٩٤ .

كان هناك خديجة وبحيرا وأبو بكر [١] ، كما أن الرهبان المذكورين في كتاب «قسّ ونبي» بصفتهم أصحاب دور مؤثر في حياة محمد هم هم الذين ذكرهم صاحب كتاب « فترة التكوين في حياة الصادق الأمين »[٢] كقسّ بن ساعدة وبحيرا وعداس وغيرهم ، بالإضافة إلى اتكاء الكتابين إلى حد بعيد على « السيرة الحلبية » ذات الصبغة الشعبية الواضحة والروايات الغريبة والمبالغات العجيبة التي لم ترد في الأحاديث النبوية أو كتب السيرة المكرة مما لا تطمئن إليه عقلية الناقد المدقق الشيء الوحيد الذي يمكن أن يميز بين الكتابين هو أن الكتاب الأخير يعطي لخديجة دوراً في توجيه محمد وإعداده، وتصيغه ليكون نبيا أكثر مما يعطيه إياها الكتاب الأول . وبالمناسبة فكلا المؤلفين يؤكد أن ما أتى به هو شيء جديد لم يسبقه إليه سابق ، وإن كان الحويري يقول ذلك دون طنطنة أو ثرثرة [٣].

وبالمثل فإن مصطلح « الماورائيات » الذي تشعّف بلوكه الكتب

---

(١) ص ٥٣ ، ٦١ ـ ٦٢ ، ٦٤ .

(٢) ص ٢٥ ـ ٢٦ ، ٥٧ .

(٣) ص ١٢٢

التى تحمل اسم « خليل عبد الكريم » (وهو مصطلح لا أذكر أنى وجدته عند غيره من الكتاب المصريين أو العرب) موجود كذلك فى كتاب الحريرى [١] . وهناك أيضاً مصطلح « التيولوجى » (بالتاء فى كل المواضع التى ورد فيها من كتاب « فترة التكوين » [٢] ، وقد كانت الكتب السابقة التى تحمل اسم خليل عبد الكريم تكتبها بالثاء حسب النطق الإنجليزى لها، فحمّلت (قبل أن يقع فى يدى كتاب « قسّ وسى ») أن تكون بين الأيدى التى وراء الكتاب الحديد يدّ استشراقية أو تبشيرية فرنسية، فلما حصل فى يدى كتاب أبى موسى الحريرى ووجدت التشابه الرهيب بينه وبين كتاب « فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين » لفت نظرى فيه أن كل مراجعه الأجنبية تقريبا بالفرنسية ، ومن بينها كتاب دابيلو المسمّى " Théologie du Judéo - Christianisme " فعضّد ما كان قد قام بنفسى من ظنّ بهذا الشأن [٣]

وهذا التشابه الرهيب بين الكتابين هو سبب آخر يضاف إلى الأسباب السابقة التى أمنت حَسَكَ الشكّ فى صدرى تجاه نسبة

---

(١) ص ١٤٩ ، ٢١٥ .

(٢) ص ٢٧ ، ١١٩ ، ١٨٤ مثلا

(٣) انظر ص ٢١ ، ٢١٩ حيث يذكر المرجع الفرنسى المشار إليه

الكتب التى تحمل اسم « خليل عبد الكريم » إليه . فالذى فى الكتاب المنسوب إليه هو نفسه ما فى الكتاب الذى يحمل اسم «أبى موسى الحريرى» مع اختلاف بعض التفاصيل هنا وهناك مما لا يؤثر فى فكرة الكتابين الرئيسية وخطوطها العامة كلها . وتفسيرى للأمر هو أن هناك جهة واحدة وراء هذين الكتابين وزّعت الأدوار بحيث يبدو وكأنهما من تأليف شخصين مختلفين وصلا إلى ما قالاه، كلٌّ من طريقه هو وبمنهجه هو دون أن تكون له صلة بالآخر . وهو كلام إن حار على القارئ العادى الحالى الذهن من مثل هذه الألاعيب والترتيبات فإنها لا تروج عند الباحثين المدركين لأبعاد قضايا الصراع الحضارى والمؤامرات التى لا تكفّ عن غزلها ونسجها وحَوْكها المؤسسات المعادية للإسلام ، وعلى رأسها مؤسسات التبشير والتنصير ومن الواضح وضوح ضوء الشمس فى حَمَارّة القيظ أن كلا الكتابين يحاول أن يُدْخل فى روع القارئ المسلم أن محمدا ما هو إلا صنيعةُ أيدٍ بشرية نصرانية وأنه لم يأت بأى شىء جديد ، ولا علاقة له بالسماء ولا بالوحى الإلهى . وبالنسبة للكتاب الذى يحمل اسم «خليل عبد الكريم» فسوف يلاحظ القارئ أن فيه بعض الهجوم الذى لا قيمة له على أتباع الكتاب المقدس وبعض شخصياته ، لزوم

الشُّغْل حتى تخيء الطبخة أكثر سمكاً وأفوح بالروائح التى تتحلب لها الأشداق كقوله مثلا عن سيدنا يوسف « العشى الحليوة » [١] ، وكهجومه على بولس وإتهامه له بإفساد النصرانية [٢] وهى إضافات لا تغضب المؤسسات المذكورة فى شيء ، فهى موجهة إلى المسلمين لا إلى أهل الكتاب ، والتاجر المصرّس هو الذى يعرى عملاءه بعض التخفيضات والتصحيات والخسائر البسيطة بغية كسب ثقتهم المطلقة وتحذيرهم وتطويعهم لما يريد بعد ذلك فهم هى ذلك كما قال المثل العربى القديم « أُوسِعْتُهم شتْمًا ، وفاروا بالإبل » ، إذ ماذا يعيد صاحبَ الإبل المسروقة إذا أُتيح سارقيها شتما ما دامـوا قـد استولَوا عليها ورحلوا بها ؟

ومما يحملنى أستعد أيضًا تأليف خليل عبد الكريم لهذا الكتاب ما فيه من تصورات ومفاهيم ومصطلحات كتابية عربية لا تعرفها العقلية التى تربت فى جو إسلامى حتى لو أصبح صاحبها كافرا بمحمد ودينه ، مثل تسمية أنبياء بنى إسرائيل بـ « الطاركة / »

---

(١) ص ٣٨٤ .

(٢) ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

البطارقة) أو بمرادفها العربى « الآباء الأولين » . وقد تكرر هذا كثيرا بصورة عجيبة [١] . ومن ذلك أيضًا تسميته إبراهيم ويحيى عليهما السلام بـ « أبراهام ويوحنا » [٢] ، وهى من الدقائق التى فات مَنْ وراء الكتاب أن يتلافاها فيستبدل بالاسمين المذكورين صيغتيهما العبريتين ومثل ذلك اسم « ملاك الربّ » ، الذى تردد كثيرا فى الكتاب [٣] ، وهو مصطلح نصرانى لا يمكن أن تحطئه العين ولا الأذن !

كذلك رأينا المؤلف يحار دون أدنى داع إلى صفية ضد عائشة (رضى الله عن الاثنتين ، ولعن المِلْح السميع الذى يتطاول إلى التدخل بينهما) رافعا الأولى وقومها اليهود إلى عنان السماء ، ولامزا الثانية لمزًا يظن أنه يسىء إليها ويحقر من شأنها هى وأبيها والعرب والمسلمين أجمعين ، وهو ما لا يمكن أن يخطر فى بال أى شخص

(١) ص ٩٦ ، ١٤٤ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٣٧٠ على سبيل المثال لا حصر .

(٢) ص ٢٨٢

(٣) ص ١٥٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ على سبيل التمثيل ليس إلا .

ينتسب إلى الإسلام مهما يكن موقفه الحقيقى من هذا الدين ، إلا إذا وقع تحت وطء عنيف لا قبل له به !

ومن هذا الوادى أيضًا استعماله مرارًا لكلمة « أبرشية » [١] ، حيث يزعم أن مكة كانت بها أبرشية نصرانية ، وهى كلمة غير معروفة إلا فى البلاد العربية ، ومن ثم فلا يستخدمها حتى النصارى العرب . ومن فلتات القلم الفاضحة فى الكتاب أيضًا لفظة «الامرأة»[٢] ، التى لا يستخدمها على هذا النحو إلا بعض المستشرقين والكُتّاب النصارى فى لبنان ، أما فى مصر فلا تُبقى على همزتها إلا فى حالة التصغير ، فإذا أدخلنا عليها « أل » حذفنا هذه الهمزة . ومن الأمارات كذلك على أن هناك أيدياً كتابية وراء هذا الكتاب تكرُّر الاستشهاد بالكتاب المقدس فى مسائل الرؤى الدينية والوحى وما إلى ذلك باعتباره الفيصل فى الموضوع [٣] ، والقول بأن خلوة محمد فى غار حراء هى تقليد يهودى نصرانى أخذه عليه السلام عن خديجة

---

(١) ص ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ٣٣٧ مثلا .

(٢) ص ١٢٤ .

(٣) ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ، ٣٦٨ مثلا .

عن ورقة عن التوراة والإنجيل [١] ، وكذلك اختصار اسم « سعر إشمياء » مثلا إلى « إش » ، على عادة أهل الكتاب ، بخلاف المسلمين ، الذين يذكرون الاسم في مثل هذه الحالة كاملا [٢] . وفي هذه الأمارات أيضاً تحسّر مؤلف الكتاب على دخول الإسلام مصر ، وتسميته فتح عمرو بن العاص لمصر استعماراً عربيا استيطانيا أتت في ركابه قبائل كثيرة دهست صعيد مصر ، وانتهامه له رضي الله عنه بأنه « فعل الأفاعيل هو وجنوده بمصر المخروسة عكس ما يزعمه حملة المباخر من المؤرخين المحدثين »[٣] جهل يعقل أن يقول خليل عبد الكريم ذلك ، وهو المتحدر من هؤلاء العرب الذين لولا الفتح الإسلامي المبارك لأرض الكنانة ما فكروا أصلا في المجيء إلى مصر المخروسة ؟ أم هل كانوا سيأتون حتماً في العجل أبيس وعبادته ؟ لقد كان عندهم من الأصنام والأوثان ما يغنيهم عن كل العجول ؟

ثم إن النَّفَس التبشيري الصليبي البتن ليهب عليها أيضاً من خلال السطور التي تهاجم د. عبد الحليم محمود وتحاول الاستهزاء به والإقلال من شأنه [٤] . ذلك أن الشيخ المبجّل ، عليه رحمة الله ،

---

(١) ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ ، ٣٨٤ .

(٢) ص ٣٥٦ .

(٣) ص ٤٧ .

(٤) ص ١٧٩ ، ٢٨٨ ، ٣٩٢ مثلا .

قد ترجم مثلا كتابا من الفرنسية عن المسيحية يفصح عنوانها ويتسع بالتوفيق العلمي ما لحقها على مدى تاريخها الطويل من عبث وتزييف . فهذا هو السبب فى أنّ حظىَ هذا العالم الجليل من مؤلف الكتاب بالتطاول على شخصه الكريم ، مع أن ذلك المشّر الجبان لا يتسامى إلى مقام حذاء الشيخ ، الذى كان من أشجع من عرفتْ مصرٌ من مشايخ الأزهر وأسلمهم وأحشاهم لله ، رحمه الله وأسكنه عُلّيا الجنان .

ومن أوجه المشابهات بين الكتابين بما يعضد ما نقوله من أنهما خارجان من بالوعة واحدة هذا التفسيرُ الحلمستيشى للآيات القرآنية : فعلى سبيل التمثيل نرى المسمّى « أما موسى الحريرى » يفسّر قوله تعالى فى سورة « الأحزاب » ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا . هذا ما وعدَنا الله ورسوله ﴾ على أساس أن المراد بـ « الأحزاب » فِرَقُ النصارى التى تتصارع فيما بينها حول طبيعة المسيح وصلبه وما إلى ذلك [1] ، مع أن الآية إنما تتحدث عن أحزاب المشركين الذين تجمعوا من كل صوب لمحاربة النبى وأتباعه فى غزوة الخندق كما لا

(١) ص ٢٠

يخفى إلا على جاهل حقود قد جعل الله فى أذنه وقلبه وقْرًا ، وعلى عينه غشاوة ! وبالمثل نراه يشرح قوله تعالى من سورة « المائدة » ﴿لستم على شىء حتى تُقيموا التوراة والإنجيل وما أُنْزِل إليكم من ربكم﴾ بأن الخطاب فيه موجه إلى المسلمين وأن القرآن يطالبهم بالعمل بالتوراة والإنجيل والقرآن جميعا لا بالقرآن وحده (١) وهذا العِلْج الخبيث قد اقتطع من صدر الآية عبارة ﴿قل : يا أهل الكتاب﴾ ، التى تدل دلالة قاطعة لا محال معها للعبث التشيرى الدنس على أن الحديث فيها موجه لليهود والنصارى لا للمسلمين . وعلى نفس النهج الشيطانى يتناول قوله تعالى فى الآيات التالية . ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون ﴾ ، و ﴿ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ ، و ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ قائلا إنها تتحدث عن رهبان النصارى وقسيسيهم (٢) ، مع أنه لا صلة بينها وبين الرهبان والقساوسة على أى نحو من الأنحاء ، إذ الحديث فيها عن المؤمنين من أتباع محمد ليس غير . وهذا من

(١) ص ١١٧ .

(٢) ص ٢٠٤ .

الجلاء بحيث لا يمكن أن يفسّرها بغير ذلك إلا وغد لئيم ! وغير ذلك كثير . وواضح ماذا يريد أن يقول هذا المبشر . وسوف نرى فيما يلى من صفحات مثلَ هذه التفسيرات البهلوانية فى الكتاب الموضوع عليه اسم « خليل عبد الكريم » .

ثم أخيراً وليس آخراً يسعى ألا يعوتنا هذا المقدار الهائل من الروايات المستكنّة فى أعماق الكتب القديمة مما جعل المستشرقون وكُدْهم تقصيَه واستخراجه بملقاط العلّ الأسود وشكّك بعضه ببعض شيْكاً متعسفا متعمّلاً والخروج منه بنتائج لا تُسْلِم إليها المقدمات . وقد قلت إن ما يعرفه عن خليل عبد الكريم لا يساعد عقلى على الاطمئنان إلى أنه هو صاحب كل هذا . خذ مثلا عندك أسماء النبى وصفاته وألقابه التى تجاوزت العشرات والتى يحوص مؤلف الكتاب على استخدامها (بدلا من لقب النبوة أو الرسالة) بطريقة استهزائية مثل « الحاشع » و « الخاضع » و « المسعود » و « آكل الشعير » و« المُعْطَى الوسيلة » و « سعد الخلائق و « البهىّ » و « الخالص » و« راكب الأتان » و « صاحب النّعلين » .. إلخ ، إلخ . إن يد الاستشراق والتشهير واضحة هنا أيضاً وإذا كانت اليد الذى ألفت الكتاب تطن أنها تستهزئ بالرسول الأعظم حين تسميه

« صاحب النعليس » أو « راكب الأتان » مثلاً فإني أذكّر هذه اليد المحسة الآثمة بأن من الشر أشخاصاً بلغوا الغاية فى السموّ والنبالة تُمدَح النعال لتشرفها بملامسة أقدامهم كما فعل المقرىّ مع نعال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ ألف كتابا عنوانه « فتح المتعال فى مدح النّعال » ، على حين أن ثمة أناسا (أو بالأحرى بغالا) كهؤلاء المستهرقين بمحمد عليه السلام لا يستحقون إلا الضرب بالنعال ، بل إن النّعال لتشمئز من أن تُصفَع بها وجوههم وأقفاؤهم تحرزاً من التنجس بملامستهم . ولعل بعض المؤلفين يصنعون لنا فى هذه المسألة كتاباً بعنوان « اشمئزار النعال من صفع البغال » .

ثم ماذا فى ركوبه عليه الصلاة والسلام الأتان أيها الأشقياء ؟ ارْعَوُوا وادخلوا جحوركم لا يَحْطِمنّكم أحقرُ نَمِر من أتباع محمد بمعالهم وهم متكم مشمئزون !

بعد هذا كله كيف تُوانى صاحبَ الكتاب الذى نحن بسبيله الآن نفسُه على الذهاب مع الدعاوى العريضة بأنه ابن بَجْدَتِها الذى أتى بالفتح المبين فى كشف الوحى المحمدى وسَبْق الأولين والآخرين رغم أن الكتاب مأخوذ من كتاب « قسّ وبيى » إلا ما ليس له قيمة تذكر ؟ بعضا من حُمْرة الخجل أيها الأنحاس المماكيد !

وبعد ، فمسألة الكتب وانتحالها ظاهرة معروفة ، وبخاصة فى

ميدان الكيْد للإسلام . ذلك أن حَمْل الكتاب الذى يهاجم دينا اسمَ مؤلف إسلامى أقْمَنُ أن يكون له تأثير أقوى فى نفوس القراء المسلمين . ولدينا من هذه الكتب على سبيل المثال كتاب « مقالة فى الإسلام »[1] لجورجيس سال (George Sale) أحد مترجمى القرآن الكريم إلى الإنجليزية ، وقد نقله بعضهم إلى العربية فى الثمانينات من القرن قبل الماضى وتسمّى على الغلاف باسم « هاشم العربى »، وهى (كما ترى) تسمية إسلامية صرف ، ثم تظاهَرَ بأنه يريد أن يزيد القراء تعريفا به فوصف نفسه بأنه « نزيل البلاد الإفرنجية حالا » ، قاصداً من أن يكحّلها أعماها ، إذ ماذا تعنى هذه العبارة إلا مريدا من الغموض والتحبير ؟ والذى أراه أن المترجم هو أحد أدباء النصارى اللبنانيين فى ذلك الوقت لأن ميسَم الأسلوب الذى صيغ به الكتاب يقول هذا بأعلى صوته . كما أن المتسمِّىَ بـ « أبي موسى الحريرى » نفْسَه قد أبدى تشككه فى اسم « هاشم العربى » هذا ، إذ وضع علامة استفهام بين قوسين بعد الاسم[2] .

---

(١) هذا الكتاب هو ، فى الأصل ، المقدمة الطويلة التى ألفها سيل (Sale) فى صدر ترجمته للقرآن بعنوان « The Preliminary Discourse » ، مصاحبا إليها تعليقات المترجم التى هاجم فيها سيدنا ومسدد رسول الله بقله أدب سمجة .

(٢) ص ٢١٨ مثلا .

وكلنا أيضًا نعرف قصة الرسالة التي حصل بها مصور فهمي على درجة الدكتورية في أوائل القرن العشرين من فرنسا والتي صوّب فيها سهام الاتهام الحمقاء إلى الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم ندم مما جاء فيها بعد ذلك وعاد إلى دينه كرة أخرى . هذه الرسالة يؤكد محمد لطفي جمعة ، وهو ممن تعلموا أيضًا في فرنسا في ذلك الوقت، أن المستشرقين قد أخذوا فهمي إلى هولندا وكتبوها وطبعوها له هناك ، وأن دوره فيها لا يتعدى قوله وضع اسمه عليها حتى تروّج بين المسلمين ويكون أثرها فيهم أعنف [1] .

كذلك أورد د. محمد سيد أحمد المُسَيَّر حالة أخرى من هذا القبيل ، وهي كتاب « لماذا القرآن ؟ » (الذي صدر في ليبيا لمؤلف يدعى د. عبد الله الخليفة) وكتاب « قراءة في صحيح البخاري » (لمؤلف يدعى د. أحمد صبحي في الهجوم على السنة النبوية) ، فهما كتابان متشابهان تشابهًا ضخمًا بل يكادان يتطابقان ، ومع

---

(١) انظر رأيح لطفي جمعة / محمد لطفي جمعة وعمالقة الأعلام / عالم الكتب / ١٩٩١م / ٣٣٢ - ٣٣٣ ، ومحمد لطفي جمعة / قطرة من مداد لأعلام المعاصرين والأمداد / عالم الكتب / ١٩٩٨م / ٢٩ - ٣٠ .

ذلك فقد صدر كل منهما في بلد مختلف ولمؤلف مختلف [١].

فإذا عدنا إلى دراسة ما في كتاب « فترة التكوين في حياة الصادق الأمين » (الذي يلعن أن النية كانت متجهة لتسميته «تصبح نبي» ، بيد أنهم خشوا مغبة هذا التهور وآثروا أن يستروه بورقة توت فأعطوه العنوان المذكور) ، فماذا نجد ؟ نبدأ أولاً بما فيه من ناقصات بعضها داخلي ، وبعضها مع أفكار تضمنتها الكتب السابقة التي تحمل اسم « خليل عبد الكريم » .

ونبدأ بتناقض موقفه من أُمّيّة النبي إنه يبدأ الفصل الأول المسمّى « قيدام » [٢] بقوله . « نحن نؤمن أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يطالع صحيفة أيا كانت المادة المصنوعة منها ولم يمسك قلما ولم يخط بيمينه كلمة ولا حرفا .

---

(١) انظر مقدمة د. المسيّر لكتاب والده د. سيد أحمد رمضان المسيّر « السنة مع القرآن » / دار الندى / ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م / ٢٣ وما بعدها .

(٢) وهو عنوان لا على الفصل وحده بل أيضاً على الحبرى والعار اللذين باء بهما الكاتب حين استخدم هذه الكلمة ظنا منه أنها تعني « القادم » (أي النبي المنتظر) ، بينما هي تعني « القُدّام » كما سلف بيانه .

ومع تقديرنا للبُحّاث الذين أجهدوا أنفسهم لإثبات أنه لم يكن أميا بل كان يعرف القراءة والكتابة فإننا نرى أن ما طرحوه لا يعدو أن يكون قرائن لا ترقى إلى رتبة الأدلة »[1].

ويلاحظ القارئ الكريم أن الكاتب يبدأ كلامه بأنه « يؤمن ... إلخ »، وهذا كلام فارغ ، فهو لا يؤمن بأى شيء فى هذه القضية ولا فى غيرها بل مرة يقول بهذا الرأى ، ومرة يقول بعكسه ، أى أنه كالريشة فى مهب الريح . ذلك أنه يعتمد هنا هى القول بعدم معرفة الرسول عليه السلام القراءة والكتابة على وصف القرآن له ولقومه بالأُمّيّة ، أى أن الأمية إنما تعنى عنده عدم القراءة والكتابة[2]. لكن خليل عبد الكريم ، فى أحد الحوارات الصحفية ، يقول بعكس ذلك تماما ، إذ فسّر الأمية الواردة فى القرآن بأن المقصود بها الإشارة إلى الأمم الأخرى من غير اليهود ، أى الأمم التى لم ينزل عليها كتاب سماوى[3]، على حين أن الكتاب الأخير يحمل بصمات على من

(١) ص ١٥ .

(٢) ص ١٥ ـ ١٦ .

(٣) انظر الحوار الصحفى الذى أجراه معه أيمن شرف فى صحيفة « الدستور » / ٢٨ يناير ١٩٩٨م / ص ١٦ .

يفسّروه الأمية بهذا المعنى . فأين الإيمان هنا ؟ وما هذه النفحة الكذابة الفارغة فى استخدام ضمير الجمع « نحن » ؟

وبالمثل يجد القارئ فى كتاب « شذور الربابة بأحوال مجتمع الصحابة ـ محمد والصحابة » ، الذى يحمل اسم «خليل عبد الكريم» أيضًا اتهامًا للرسول عليه الصلاة والسلام بأنه كان يحرص على الاطلاع على الكتب المعرفى الدينى الثمين الذى كان فى جَعْبَة سلمان الفارسى ليستعين به فى صناعة القرآن [1] . فلماذا يحرص النبى على الاختلاء بسلمان طوال الليل فى بيته صلى الله عليه وسلم إذا كان ورقة وخديجة حسبما جاء فى الكتاب الذى بين أيدينا قد ظلا يعلّمانه ويقرآن عليه الكتب الدينية ويشرحانها له ويستعيدانه ما سمع نحو خمسة عشر عامًا إلى أن تأكد لهما أنه قد تمت « كما يقول الكتاب الثانى السخيف » برَمْجَتِه بما لقناه إياه حتى صار لا يحرم منه شيئًا بسبب ذاكرته الحديدية التى لم يكن يفلت منها شىء ؟

وفى الصفحة التاسعة عشرة نراه يؤكد أن تجربة تصميم النبى التى

---

(١) ص ١١٤ من الكتاب المذكور / سينا والانتشار العربى / ١٩٩٧م / ١٤٤

قامت بها خديجة وورقة لا تنفى حاتبها الخبى ، إذ لا تعارض بين الأمرين ، لكنه بعد قليل يبين أن الإيمان بالخوارق والمعجزات (التى يسميها مخارق وشعبذات ، وهى تسمية لها دلالتها المفضوحة التى لا تخفى على أحد) هو جزء من ثقافة البيئة العربية المتخلفة ينبغى أن يؤخذ فى الحسبان عند الكلام عن هذه البيئة . وزاد فنفى فى الصفحة الخامسة والثمانين بعد المائة أن تكون حادثة الغار (وهى الحادثة التى توّجت جهود ورقة وخديجة مع محمد بالنجاح الساحق حسبما يدّعى هذا المبشّر المحترق) من الخوارق بل هى نتيجة المجهود البشرى الذى قام به الاثنان. وهو ، كما ترى ، تناقض فجّ صارخ ويزيده فجاجةً صراخُ المؤلف المستمر عن موضوعيته ورؤيته العلمية الثاقبة التى لا يَحُرّ سهما الماء !

كذلك نُلفى الكاتبَ فى الصفحة التاسعة عشرة يصف النبى عليه السلام بأنه كان أمام خديجة ابناً ليناً خاضعاً مسالماً لا يعرف إلا الطاعة والموافقة لا روحًا مشاكسًا حدلا ، مؤكدا أن هذا النموذج السهل الخَسْتَ هو النموذج المطلوب لإنجاح التجربة التى أرادت خديجة من خلالها تصييره صلى الله عليه وسلم نبيا ، ليعود فينقلب على نفسه بعد سطور قائلا إن خديجة كانت تريد ممن يشاركها

النجرة (أى من محمد صلى الله عليه وسلم) أن يصير ضربيًا لها فى الحزم والعزم [١] بل إنه ليُلمِّح على أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بعبقرية عجيبة وأخلاق سامية مدهشة وخصائص باهرة لا يتصف بها أى إنسان غيره ، لأنه قد فريد فى بابه [٢] فمن الواضح أن كلام الكاتب فى هذا الموضوع هو ، وغم الطنطنات والحذلقات ، رجراج سخيف لا قيمة له !

والمؤلف يبدئ ويعيد فى القول بأن ورقة وخديجة قد تعاونا إلى أقصى مدًى بهدف تثقيف محمد (أو « ثقّفته وصقّفته وتلميعه » بلغة المساطيل التى يعجّ بها الكتاب) ، ونحن بدورنا نسأله إذا كنت أنت نفسك قد قلت إن ورقة أراد قبلا أن يتزوج خديجة لكنه لم يوفّق إلى ذلك ، وإن أخته فتيلة الكاهنة قد حاولت أن يعاشرها عبد الله (والد الرسول عليه السلام) كيما ينتقل إليها النور القدسى الذى كان فى وجهه فصدّها وذهب إلى آمنة زوجته فعاشرها فحملت منه بالقادم المنتظر [٣] ، فكيف يمكن أن ينسى ورقةُ هذا كلّه ويمدّ يد

(١) ص ١٩ ـ ٢٠

(٢) ص ٣٧ ـ ٣٨ ، ١٩٢ مثلا

(٣) ص ٣٦

التعاون إلى خديجة ليصنع من محمد نبيا رغم أنه قد نال هو وأخته على يده ويد أبيه القهر والهزيمة السَّمْدلَّة ، ما دامت المسألة كلها تدبيرا بشريا لا دخل فيه للسماء ولا للخوف من الله أو الرجاء فى ثوابه ؟ أرجو من أحد العقلاء أن يحفّ لتحدتى فقد اختار دليلى مع هذا الميشّر المستحفى الذى يلعن أن بعض الناس قد قال عنه إنه يكتب بيديه ووحليه ، بيمسا أرى أنا أنه إنما يكتسب ، ويفكر أيضًا ، بحوافره !

وقد مرّ بنا فيما سلف من صفحات ما قاله المؤلف فى موضع من كتابه من أن خديجة قد «جفّ» ريقها وحقبت قدماها وداحت السبع دوخسات .. حتى وافق إسلام الأولين والآخرين على خطبتهسا فكاحها» ، وساقت إلى محمد المراسيل من ذكور وإناث وأحرار وعبيد وموالٍ وأقارب وأباعد ، وطلبت خاصيره إلى أن سلّم لها ورفع الراية البيضاء بعد « عصلحة » مه شديدة ورضى أن يتزوجها [1] . ولكنما نسمعه فى موضع آخر من ذات الكتاب يعدد الفوارق التى تمير خديجة على محمد فى الحسب والمال والخبرة والثقافة ، ثم يحتم قائلاً إن محمدا لم يكن يصدّق أن خديجة ترضى بالزواج منه [2]

---

(١) ص ٣٩ ، ٤١ ـ ٤٢ ، ٥١ ـ ٥٢ ، ٦٤ ـ ٦٦ ، ٣١٠

(٢) ص ٢٨٩

فأى الكلامين نأخذ؟ حسبنا الله ، ونعم الوكيل !

ومن تناقضات الكاتب أيضًا تأكيده أن العبيد المكيين العصاري المعاصرين للرسول عليه السلام « كان فى لهجتهم أو لغتهم عجمة ، وفى لسانهم حُكْلَة مما يجعلهم عاجزين أو معوّقين عن نقل ما لديهم من علم . هذا مع التسليم الجدلى الذى سَحْت بأنهم يحسنون علما وحقيقة أن محمدا ، مما أوتى من فصاحة وورِق من بلاغة ونُصح من لَسَنٍ ومِنح من دراية ، كان فى مقدوره ترجمة ما يتلقاه منهم إلى اللسان العربى المبين . بيْدَ أن المشكلة الكبرى لكمن فى البداية ، وهى صعوبةُ أو عُسْرُ توصيل ما عندهم من معارف إلى محمد . وهذا مُشاهَدٌ فيمن يريد أن يشرح وجهة نظره بلغة لا يحيدها فيعسر عليه ذلك » (١) عظيم ، ولكن ماذا نعمل فى النص التالى الذى كتبه المؤلف فى موضع آخر من كتابه والذى يقول فيه عن هؤلاء العبيد أنفسهم : « لا شك أنه دارت حوارات بينهم وبين سادتهم ، وبعضهم بلغ درجة لا بأس بها من الثقافة الدينية مع إجادته القراءة والكتابة ، وتملّك أو حاز نفرٌ منهم إصحاحاتٍ وأبعاضا من الإنجيل

(١) ص ٦٧

... ومنهم من كان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ويقصُّون عليهم ما حفظوه ورَوَوْه من أخبار الماضين وقصص الراحلين » [1] والآن ما العمل ؟ أنقول إن الكلام الأول كان في الصفحة السابعة عشرة ، على حين أن الكلام الثاني موجود في الصفحة السادسة والأربعين بعد المائة ، فالمسافة بين الصفحتين من الطول إذن بحيث تسمح لأولئك العبيد أن يتعلموا على عُجْمتهم وحُكْلتهم وأن يتعلموا العربية ويحسنوا الحديث والتعبير بها عن أعقد الأفكار والمشاعر؟ ولم لا ؟ إن الفرق بين الموضعين هو مائة وثلاثون صفحة ، كل صفحة تقطع صفحة ، وهو فرق هائل يمكن أن تتحقق فيه المعجزات !

ومما يلفت النظر أيضًا الحملةُ العنيفة الشعواء التي يشنها المؤلف في عدة مواضع من كتابه على المستشرقين مُسَفِّهًا لعقولهم وأفكارهم ، ومتَّهمًا لهم بالجهل باللسان العربي والعجز عن فهم الكتب العربية فهمًا صحيحًا ، وداعيا إياهم إلى أن يأتوا فَيَحْثُوا بين يديه ليرتشفوا من رحيق علمه الصافي ، وصاحكًا منهم ومن جهلهم

(١) ص ١٤٦ ـ ١٤٧ والجزء الذي تحته خط نقله الكاتب عن د. جواد علي .

لدرجة « الاستلقاء على القفا » حسب تعبيره ، وواعيًا عليهم «عماطتهم» وانعلاق بصائرهم [١]. وقارئ هذا الكلام لن يصدق أن صاحبه هو هو نفسه الذى رفعهم إلى أعلى عليّين فى كتاب آخر من الكتب التى تحمل اسم خليل عبد الكريم أيضاً ، وإن استثنى من هذا التمجيد الطائفة التى أسلمت منهم ، إذ رماها بالفجاجة والغموض الفكرى والهزال [٢] فالمسألة عند صاحب هذه الكتب ، كما هو واضح ، ليست مسألة تحقيق علمى موضوعى بل مسألة حالات لا ضابط لها ولا رابط ، اللهم إلا كُرْهه القاتل للإسلام وبنيه ورموزه الأطهار الشرفاء . والحالة التى بين أيدينا الآن تستلزم التطاول على المستشرقين من أجل إيهام القارئ المسلم أن الكاتب يعادى الاستشراق ولا ينطلق من نقطة الكراهية لدين محمد .

ولا مانع عند المستشرقين أن يُقلّل من شأنهم ظاهريا ما دام الهدف الذى يصوب الكتاب إليه سهامه السّامّة هو نفس الهدف الذى يتغيّونه ، وهو صوب الإسلام فى مقتل . وإذا كان الكتاب يتضمن

---

(١) ص ١٩٦ ، ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، ٣٩٣ .

(٢) انظر « نشر الرواية بأصول مجتمع الصحابة ـ محمد والصحابة » / ١٦٦ ـ ١٦٧

كل هذا القدر الهائل الشنع من الهذاء والاستهزاء بمحمد ، فلا مانع أن ينال المستشرقين شيء من تقليل الشأن الذي يُعَدّ ، بالقياس إلى ما وُجِّه إلى الرسول الأكرم ، دعدعة من الحبيب لحبيبه . ومع ذلك كله فإن اللعنة مكشوفة بل مفضوحة لا تحوز على أحد !

ونمضي مع مخازي الكتاب الأخرى ، بيد أننا لن نتناول إلا عينة محدودة من ألوان الخَبَل الفكري التي يفيض بها . ونبدأ بالسؤال التالي ، وهو يتعلق بالفكرة الأساسية التي يدور عليها فنقول : إذا كانت حديجة تؤمن بأن هناك نبيا قادماً فكيف يخطر في ذهنها مجرد خُطُور أن تقوم هي بتعليمه وتدريبه وتثقيفه وتوجيهه أو ، حسب لغة الحشاشين والحوذية ، بـ « صَفْتَرته وقَلْوَظته وتلميعه » ؟ كيف يا ترى يمكن لبشر عادي ، بالعا ما بلغ تفوقه العقلي وسموّه النفسي وامتيازه الخلقي ، أن يصنع نبيا ؟ أأرادت بعملية « الصفترة والقلوظة والتلميع » أن تتدارك مقدّما ما يمكن أن يقع فيه الله سبحانه وتعالى من سهو أو نسيان فيخرج نبيه من تحت يده غير مُصَفْتَر أو مُقَلْوَظ ؟ أأنا في حلم أم في علم يا إلهي ؟ أهذا كلام يقوله بشر ، أم نعيرٌ مما تصيح به البُغر ؟ وحتى لو حاورنا أصحاب هذا التفكير (أو بالحَرَى :

«المُعير») ، فهل تستغرق هذه العملية ، وبالذات مع شخص عبقرى كمحمد (حسبما وصفه الكتاب مرارا) ، خمسة عشر عاما ؟ إن المقصود بالتثقيف هنا هو قراءة التوراة والإنجيل عليه وشرحهما له ، فما الذى فيهما مما يمكن أن يستغرق شرحُه وفهمُه خمسة عشر عامًا ، ومحمد ، طبقا لشهادة ذلك المبشّر له أكثر من مرة ، كان كالكمبيوتر فى الحفظ والاستيعاب والقابلية للبرمجة ؟ والله لو كان كمبيوتر وزارة الداخلية دائه الذى تتهمه صحف المعارضة بالضلال المبين ما أحدثت منه المسألة خمس عشرة ثانية ! ثم لماذا لم تُحْضِر له مدرسًا خصوصيا يعلمه القراءة والكتابة ليقرأ الكتب بنفسه بدلاً من « حَوَّة الدماغ » التى كانت تتكبدها ؟ ألم أقل إن المبشر الذى ألف هذا الكتاب إنما يفكر بحوافره ؟

إنى دائمًا ما أقول إن أهل العرب دون عقول مسطمة وتفكير مستقيم ، إلا أن يُذْكر أمامهم محمد ، فعندئذ يرتدّون كالأطفال فتتأرجح عقولهم وتتأوّه ! إن ذِكْر محمد أمامهم يُشِلّ منهم الأذهان ! وإلا فأنشدك الله أيها القارئ أن تحاول تصوير هذا السِّرار الذى يلطخون به الأوراق كلما أرادوا أن يتحدثوا عن الإسلام . إنك تنظر إليهم ، وهم يتحدثون فى أى موضوع حلا الإسلام وسيّ الإسلام ، فتحد لهم

في وجوههم أفواها ، وتصمت إلى هذه الأفواه فتجدها تصدر كلاما ، لكن ما إن يتحول الحديث إلى محمد حتى تماحاً بأن هذه الأفواه قد انقلبت إلى أستاه لا يصدر عنها إلا الضراط والحراء ! ثم تساؤل آخر ، إذا كانت خديجة تستطيع أن تصنع نبيًا ، فلماذا لم تحاول أن تجعل من نفسها هي نية بدلاً من تحشُّم عناء القراءة والشرح والتسميع ... إلخ خمس عشرة سنة مع محمد ؟ لقد زعم المؤلف أنها كانت نصرانية . والنصارى (واليهود أيضًا) ، كما هو معروف ، يؤمنون بوجود نساء نبيات كساوة روحة إبراهيم عليه السلام ، ومريم أخت هارون وموسى ، وحنة أم يحيى [1] ، أفلم يكن أحدر بها وأليق بخصائصها وحرمها وعزمها أن تضيف اسمها إلى قائمة النبيات لدى أهل الكتاب ما دامت النبوة بهذا اليسر عند صاحبنا ؟ أفلم تكن

---

(١) في كتابي « مع الحاحظ في رسالة الرد على النصارى » (نشر مكتبة زهراء الشرق) فصل بعنوان « نبوة النساء » عدّدتُ فيه اعتقاد أهل الكتاب في نبوة النساء من قلب الكتاب المقدس نفسه ـ فأنا إذن ممن لا يوافقون على القول بأنه كانت هناك نساء نبيات ، ولكني هنا إنما أجري مع المؤلف فيما يقول وأنطلق من نفس مطلقه ، وهذه عليه المسامحة من حاشيتي ، بيّد أن الفرق دائمًا ما تكون مسدودة في وجهه رغم ذلك .

مثقفة (ومن الإنتليجنسيا أيضاً) كما يقول المتفيهق الوخيم الثقيل الظل؟ (١) أفلم تكن طاهرة (بل: الطاهرة، بألف ولام الماهية)؟ أفلم تكن رَجْلة العرم قوية الشكيمة كما جاء في الصفحة التاسعة والعشرين؟ أفلم يكن أمثلها ومنى عيبها أن تقوم بمسح نبي؟ فما الذي منعها أن تجعل من نفسها النبية المنتظرة؟ إن هذا يذكرنا بـ «أدلك من أين يا حجا؟»

بل دعُوها من هذا كله وتعالوا نسأل: لماذا أرادت خديجة أصلاً أن تصبح نبيا ما دام الأمر كله تدبيرا بشريا؟ وأي تدبير؟ تدبير هو إلى التآمر أقرب منه إلى استقامة الخلق والصميم. إن هذا يذكرنا بالمثل القائل: «من له مال يحيّره، يشتري حمامًا ويطيّره»! فخديجة، حسب هذه النظرية السقيمة الرديئة ودالة عقل مياسمها، كان عندها مال لا يُحْصَى ولا يُعَدّ، وكانت لا تعرف ماذا تفعل به، فقالت ذات يوم في عقل بالها، وكانت وحدها في البيت لا تجد ما تفعله: «ما رأيك يا ست يا خديجة؟ أنت تسمعين الناس هذه الأيام في كل مكان يتحدثون عن الغادم المنتظر، فما دام لو نادرتهم أنتِ

(١) ص ٩، ١٩١ ـ إلخ

واتفقت مع ابن عمك ورقة بن نوفل مدير « مصنع تحميع وتركيب وقلوظة الأسياء - توفل إخوان » على أن « يصنع » لك حتة سى على هواك ، « ويصفره ويقلوظه » مع ضمان سنة ، ويوصله لك إلى البيت فتضعه فى البهو على يمين الداخل بعد « تلميعه » من غبار الطريق لتكيدى به العوادل والأعادى من أمثال أم هانىء ؟ والسى يا حديجة لتكونن هذه قبلة الموسم ! »

ألا حيبة الله على التافهين ! بالذمة أهؤلاء رجال ؟ أيمكن أن يكون رجلاً من يقول عن سيد الأسياء والمرسلين إنه بحاجة إلى صفرة وقلوظة وتلميع ؟ إن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يدور إلا فى است (لا فى عقل) مسئر قد قارت به وَجْماؤه أياما وليالى ذات عدد فلم يجد من يتفيه من دائها ! أحزاكم الله أيها المبشرون المماكيد ! إن مَنْ بيته من زجاج لا يرمى الحبال الرواسى الشماء بحجر ! ترى ما الذى يمنع الكاتب الفلحاس أن يحمل من نفسه قبا ما دامت النسوة سهلة إلى هذا الحد؟ فليُرِنا مهارته ، وها نحن أولاء منتظرون ، وأيضًا متيقنون أنه سيموت صعقا بالنعال القديمة على أيدى جماهير « المستضعفين فى الأرض » الذين يتفيهق بأنه وأمثاله

هم الناطقون باسمهم ، المدافعون عن مصالحهم ، الميّتون فى هواهم!

أوه ! لقد نسيا للأسف فى رحمة الكلام ورقة بن نوفل ، الذى كان أستاذا لأستاذة محمد وقسيساً لكنيسة مكة طبقا للنظرية الرقيمة فيا ترى لماذا لم يتقدم هو ، وهو رجل جاهزٌ وملء هدومه ثقافةً وإخلاصا وتقوى ، ويعرف العبرى (وربما السريانى والآرامى والحبشى وسائر اللغات السامية أيضاً) ، ويترجم من الإنجيل إلى العربية « ترجمة رائعة ودقيقة » (على حدّ وصف أحد النقاد المصريين لكل ترجمة يكتب عنها رغم أنه لا يعرف أية لغة أجنبية) ، فيصبّ نفسه سيا ؟ ألم تكن خديجة تموت رغبةً فى الفوز بالقادم المنتظر ؟ ألم يكن هو يحب خديجة ويبغى الزواج منها فلم يوفّق ؟ تاهت ولقيماها ، فهذه هى الفرصة التى لا يبغى أن يضيّعها من يديه بهذه البساطة . يدّعى النبوة ، ولن يحتاج الأمر عندئذ خمس عشرة سنة ولا حتى خمس عشرة دقيقة لأنه ، كما قلت ، جاهز من فوره ، على عكس محمد ، الذى يصوره لنا شُذّاذ التبشير فتًى حالمًا مليطا من الثقافة عَرِيًا من التجربة والذى سيحتشمه من تعب الإعداد وإرهاق التدريب ما تضيق به الصدور . ما عليه إذن إلا أن يقول : أنا نبى ، وموسى نبى ، وعيسى نبى ، وكل من له نبى يصلّى عليه ! فيرد عليه

جمهور أمرئيته فى صحن كنيسة مكة قائلين « اللهم ، صلِّ وسلِّم عليك يا سى ! » ، وبهذا تنتهى السيره كلها فى لحظات !

ولكن قبل أن نترك ورقة نحب أن نقف وقفة عند قُسُّوسَتِه المزعومة . لقد ورد اسمه فى بعض الروايات الإسلامية مصحوباً بلقب « القَسّ » ، فهل كان ، رضى الله عنه ، قسًّا فعلا ؟ لقد كان الرجل يعيش فى مكة ، ولم تكن فى مكة كنيسة على عكس ما يدّعى مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده ، وكذلك صاحب « قسُّ ونمى » (الذى يذكرنى عنوانه بـ « الراقصة والطمال » و « ياسين وبهية » و« حسن ونعيمة » و « مروك ومقبولة » وغيرها من عناوين الأفلام والتمثيليات المشابهة) ، وإلا فليدُلّنا أحدهما على مكان تلك الكنيسة ، اللهم إلا إذا قال لنا إن ورقة كان يضعها دائما فى جيبه لا يُخرجها ولا يريها لأحد فى حِلٍّ أو ترحال (لأنها أيضاً كانت كنيسة « مونو » كـ « المحفّظة » (بسلامته) الذى لا يستطيع التفلسف بالهواء فيقول « الأيْفة » بدل « الهيئة ») ! وهأنذا أضع بين يديه « دائرة المعارف الإسلامية The Encyclopaedia of Islam » ، التى كتبها المستشرقون من يهود ونصارى وملاحدة ، فليدلنا إن كان صادقا على أى موضع فيها يقول إن مكة كانت بها كنيسة .

إن المؤلف النحرير يزعم أن مكة كانت تعج بالنصارى [١]، لكنه لم يحل في ذلك إلى أي مرجع . أما أنا فيكفي أن أستشهد بالمبشر الأسود الغلب الذي يقول في كتابه "L' Islam - Croyances et Institutions" إن النصارى المكيين إياهم لم يكونوا يشكلون سوى حفنة ضئيلة - وهذا نص كلامه بالفرنسية: "A la Mecque , nous ne pouvons constater que l' existence d'une infime poignée de chrétiens indigènes , à savoir qoraichites" [٢] أن مثل هذا المبشر اليسوعي المتعصب أشد التعصب لنصرانيته لا يمكن أن يقلل من أعداد النصارى في مكة بأية حال . إذن فمزاعم صاحب « فترة التكوين » لا تزيد على كونها سمادير تما يثور في أذهان المساطيل ! وإلا فأين كان هؤلاء النصارى حين هجم أبرهة بجيشه الجرار يتقدمه الفيل على مدينتهم ؟ أكانوا سيسكتون فلا ينضمون إليه ضد مواطنيهم الوثنيين ؟ أم على الأقل هل كانت الروايات تتجاهلهم هذا التجاهل التام ؟

---

(١) ص ٣٤٢

(٢) ص ٢٧ ـ ٢٨ / المطبعة الكاثوليكية ببيروت / ١٩٢٦م .

وقد مرّ بنا قول المدعوّ « أبا موسى الحريري » إن ورقة كان ينتمي إلى النصارى الإيبونيين الذين لم يكونوا يرون في عيسى إلهاً أو ابن إله، وكان الإنجيل الذي يقرأونه هو « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، وهذا الإنجيل يخلو من عقيدة التثليث والصلب وما إلى ذلك . وهو نفسه ما جاء في الكتاب الذي مما حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنعل[1] بل لقد ذهب إلى أن كل النصارى العرب كانوا من هذه الفرقة مستدلا على ذلك بأن القرآن الكريم لا يتحدث عن الأناجيل المتعددة التي بيد المسيحيين الآن بل عن إنجيل واحد هو الذي نزل على عيسى عليه السلام وهو الإنجيل الذي كان يقرؤه ورقة وغيره من نصارى العرب[2] ومن الممكن جدا في رأيي أن يكون ورقة وأشباهه هم وحدهم من موحّدي النصارى دون سائر النصارى العرب ، وإلا فلو كان العرب جميعا على النصرانية الصحيحة التي أتى بها عيسى ، وكان كتابهم هو حقا الإنجيل الذي نزل على ذلك الرسول عليه السلام ، فكيف نعلّل هذا الهجوم الشديد الذي يُصْلِي به القرآن الكريمُ النصارى وإيمانَهم بألوهية المسيح وصلبه . . إلخ بعد فترة

(١) انظر ص ٣٦ ، ١٤٤ ، ١٧٣ ، ٢٧١ مثلا .

(٢) ص ١٧٤ ـ ١٧٧ وغيرها .

مبكرة من الوحي المكي كقوله تعالى عن ابن مريم عليه السلام: ﴿ قال : إني عبدُ الله آتاني الكتاب ، وجعلني نبيا * ... * ذلك عيسى بن مريم قولَ الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد ! سبحانه ! إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن . فيكون * وإن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ (١)، وقوله عز شأنه حكاية لموقف الكفار حين رأوا الرسول محمدا عليه السلام ينكر عليهم شركهم : ﴿ ولما ضُرِبَ ابنُ مريم مثلا إذا قومك منه يَصِدّون * وقالوا : آلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جدلا ، بل هم قوم خَصِمون * إنْ هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ﴾ . إلى أن يقول سبحانه على لسان عيسى عليه السلام . ﴿ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ (٢)

أما حديث القرآن عن إنجيل واحد لا عن أناجيل متعددة فسببه أن الله

---

(١) مريم / ٣٠ ـ ٣٧ .

(٢) الزخرف / ٥٧ ـ ٦٥ .

سبحانه قد أنزل إنجيلا واحداً على عبده ونبيه عيسى لا عدة أناجيل ، فهو يحدثهم عما أنزله لا عما سطروه بأيديهم وقالوا ﴿ هذا من عند الله ﴾ ليشتروا به ثمناً قليلا . وهذا من الوضوح بمكان ، لكن الصماء الملتوية تعمى عنه عمدا مع سبق الإصرار بغية إثارة الشكوك والعواصف .

أما لقب « القَسّ » الذى كان يُطْلَق على ورقة فلا يخرج عن أن يكون إشارة إلى تقواه وقراءته الإنجيل[1]، فهو لَقَبٌ مَدْحِيٌ لا اصطلاحى . وعندنا أيضا عند الرحمن صاحب سلالمة فى العصر الأموى الذى كان يُلَقَّب بـ«عبد الرحمن القس» رغم أنه كان مسلماً ومعروف أن «القَسّ» فى الأصل هو العالم عند النصارى ، ثم أصبح يدل على الرتبة الكنسية المعروفة . هذا هو وضع المسألة ، لكن سماديز الحمر لا تترك صاحبها فى حاله فيتمادى فى دعاواه قائلا إن ورقة ، حين عقد قران محمد على خديجة ، قد عقده بصفته الكهنوتية[2] .

---

(١) بل إن بعض الدارسين يكون مجرد نصرانيته مستندين فى ذلك إلى حجج يؤكدون بها ما يقولون . انظر د. عويد بن عياد المطرفى / ورقة بن نوفل فى ميزان الحق / رابطة العالم الإسلامى / ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م / ٥٧ وما بعدها .

(٢) ص ١٣٦ - ١٣٧ .

وهذا كذبٌ صُرَاح . فالرجل لم يكن قسًّا كما أثبتنا لتونا وثانيا ها هي ذي العبارة التي استند إليها صاحبنا في التدليل على أن خُطْبة ورقة في حفل النكاح المذكور كانت خطبة طقوسية قال رضي الله عنه « قد رعسا في حبلكم وشرفكم . فاشهدوا عليَّ يا معاشر قريش بأني زوَّجتُ خديجة من محمد » . فهل هذا ، يالله أيها القراء ، هو الكلام الذي يقوله القسيس في مثل هذه المناسبة ؟ هل يقول القسيس لأهل الخاطب إننا نرغب في حبلكم وشرفكم ؟ وهل يمكن أن يكون ردّ وليّ الخاطب على القسيس عندئذ : « قد أحسبتُ أن يُشْرَكك عمها » كما قال أبو طالب لورقة بعد انتهائه من خطبته ، اللهم إلا إذا قيل إن عمها كان هو أيضًا قسيسًا فأراد أبو طالب أن تكون الركة مضاعفة ؟ أليست زيادة الخير خيرين على رأي المثل ؟ إن شرّ البلية حقًّا ما يُضْحك ! طيب ، فأين الإكليل الذي تصنعه العروس النصرانية على رأسها في مثل هذه المناسبة ؟ وأين الزيت المقدس الذي يمسح القسيس به العروسين ؟ وهل يمكن أن نصدق أن خطبة قسيس في عقد قران يمكن أن تخلو من ذكر الآب أو المسيح أو الروح القدس أو الركة المقدسة أو أي شيء من هذا القبيل ؟ يا له من عرس نصراني عجيب ! وهذا كله لو كان ورقة فعلاً هو

الذى تكلم باسم خديجة ، إذ الروايات الأخرى تقول إن أخاها أو أباها أو عمها هو الذى تولى ذلك ، لكن صاحبنا يتجاهل هذا كله طبعا مع أن صنيعه ذاك سيوصّله إلى غرضه ، ولكن هيهات ثم هيهات!

ومن المسائل التى تتعلق بورقة أيضاً إطالة صاحب الكتاب الوقوف عند انقطاع الوحى عن رسول الله فى السنوات الأولى من بعثته وربطه بين ذلك وبين موت ورقة ربط العلة بالمعلول [1] ، مع أن الروايات التى اعتمد عليها تعطف الأمرين مجرد عطف بالواو مما لا يفيد تعليلا بل ولا ترتيبا زمنيا . يريد أن يقول إنه لما مات ورقة لم يَعُدْ هناك أحد يُمِدّ محمدا بما يقوله للناس مدّعيا أنه وحى من السماء . وقد نسى الفلحاس أنه قال إن خديجة هى التى كانت تُمِدّ محمدا طوال الخمسة عشر عاما السابقة على البعثة ، فإذا أضفنا إليها السنوات التى مرت بعدها قبل أن يتوقف الوحى أصبح عددنا ما يقرب من عشرين عاماً حسب ما أورده الفلحاس من روايات ، وإلا فالروايات الأخرى تقول إن توقف الوحى إنما تم بعد الدفقة الأولى منه . فأين الطنطلة التى أوحى دماغنا بها طوال الوقت عن خبرة خديجة وذكاء

---

(١) ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

خديجة وثقافة خديجة التى جعلتها واحدة من «إنتليجنسيا» زمانها بجدارة واستحقاق ؟ ألا يكفيها هى ومحمدا عشرون عاما كى يستطيعا الاستمرار فى أداء مهمتهما دون الاعتماد على ورقة ؟ فكيف استأنفا عملهما بعد ذلك رغم أن ورقة بعد أن دُفن لم يعد إلى الحياة مرة أخرى ورغم أن الوحى بعدها أصبح أكثر موضوعات وأعقد حجاجا ؟ بل كيف استمر الوحى بعد موت خديجة نفسها ثلاث عشرة سنة وقد اوداد تنوعا وتعقيدا ؟ شىء واحد يستطيع البشر السحيف العقل أن يحاجّنا به ، ألا وهو أن الشفطة التى كان يصح فيها ورقة كتبه ومترجماته قد ذهبت عند تقسيم تركته إلى واحد من الورثة يعرف قيمتها لأنه كان من « الإنتليجنسيا الطليعيّين » فرفض أن يعطيها لخديجة إلا بعد مساومات ومداولات استغرقت وقتا طويلا ، فلما استقرت « شفطة ورقة » (ورقة من ؟ صاحب الشفطة طبعا !) فى يد خديجة عاد الوحى يتدفق من جديد، وانطلقت حماهير «الفُرْسُو» تصعق لهذه النهاية السعيدة للفلم بعد أن علّق القلقُ أنفاسها وقتا طويلا . هل رأى أحد رقاعة هذه العشاثة ؟ وبالمناسبة هناك كتبٌ أخرى مبكرة فى السيرة والتاريخ لا تذكر موت ورقة مع توقف الوحى بأية حال ، لكنى لن أقف عند هذا .

ويرتبط بهذه النقطة زعمٌ آخر ، فقد تفلحس المبشّر المستخفي مؤكداً أن السرّ في عدم زواج الرسول على خديجة هو أنها كانت نصرانية ككثير من قومها بني أسد ، والنصارى لا يعرفون تعدّد الزوجات. قال ذلك محتالاً متنفسا بعبقريته التي فطنته لما لم يفطن إليه أحد من قبل من غرب وعجم وفرنجة[1] كما قال ، مع أنه هنا أيضًا إنما يردّد كلام المدعوّ « أبا موسى الحريري » ! ثم إنه لم يكتف بذلك بل تحيل حواراً بين محمد وخديجة يقول فيه : «حتى لو فرضنا فرضا جدليا أنه فكر في ذلك (أي في الزواج عليها بأخرى) ، فإن الرد سوف يجيء من الظاهرة أُمّ هند : أذكّرك يا أبا القاسم (هكذا دأبت على مناداته أ هـ.) بأن ثقافتنا الدينية تَحْظُره حَظْراً باتا . وماذا يقول بحيرا وورقة وعداس وناصح وميسرة عني ؟»[2] . يا فحولك يا أنثى ! أنا أقول لك ماذا سيقول بحيرا وورقة وعداس وناصح وميسرة . سيقولون إن ملفق هذا الكلام مبشّر رقيع ! ارتخت ؟ استمطت ؟ هدأ بالك ؟ الحمد لله ! نعود إذن إلى ما كنا بسبيله .

لقد فرغنا من أن عدد النصارى القرشيين في مكة كلها كان لا

---

(١) ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٢) ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

يزيد على « حفنة صغيلة » ، فما معنى المغنطة بأن كثيرين من بنى أسد كانوا نصارى ؟ إن الروايات لا تذكر لنا منهم سوى الثنين لا غير هما ورقة وابن عمه عثمان بن الحويرث ، الذى ذهب إلى قيصر واقترح عليه أن يولّيه مكة ففعل ، فلما عاد ودعا قومه إلى النصرانية هبوا فى وجهه على بكرة أبيهم وطردوه شرّ طردة [1] مما يدل على أن هذه الديانة لم يكن لها أى أتباع تقريبا فى مكة . لم إن حديجة ، كما يقول الفلحاس ، قد تزوجت محمدا من أجل تصنيعه سيا ، أى أنها لم تكن راضية بنصرانيتها الموعومة بل تريد شيئا جديدا ، فكيف تحاجّه بها إذن ؟ إن هذا لهو الحَبَلُ بعينه ، وحديجة ست خويلد أخصف وأعقل وأكمل من ذاك !

والآن إلى القسلة التى ستنزل على هذا السخف وتلك الرقاعة فتدمرهما تدميرا . لقد تزوج كُلٌّ من حدّ حديجة وأبيها وأعمامها نوفل وحبيب والمطلب وأخيها العوام أكثر من زوجة ، وبعضهم توسّع فى ذلك توسُّعا [2] . بل إن أخاها العوام قد خلّف أباه على إحدى

---

(١) ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) انظر « نسب قريش » لمصعب الزبيرى / تحقيق ليفى بروفنسال / دار المعارف / ط٣ / ص ٢٢٨ وما بعدها ، و ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، و ٢١١ وما بعدها ، و ٢١٨ وما بعدها ، و ٢٣٥ وما بعدها

روحانه [١] ، وهو أمر لا تقبله النصرانية . فماذا يقول أبو الملاحيس في ذلك ؟

هذا ، ولعل القارئ العزيز قد لاحظ الإشارة التي وضعها المتنطع الكذوب بين قوسين يهمز بها خديجة والنبي ، وهي الإشارة التي يقول فيها إن خديجة قد «دأبت» على مناداة الرسول بـ « يا أبا القاسم » ، والتي أوردها بصورة أوضح قبل ذلك في معرض المقارنة بين عائشة وخديجة ، إذ يزعم أن الأولى كانت تناديه عليه السلام بـ « يا رسول الله » ، أما خديجة فكانت تخاطبه بـ « يا أبا القاسم » أو « يا محمد » إلا في النادر ، لأنها هي التي كانت «توجهه وتطلب إليه وتشير عليه» ، على عكس عائشة التي كانت « تلبّي وتطيع وتمتثل وتأتمر بأمره وتنفّذ وتسمع ... إلخ ، وهو الفرق الواضح الذي لا يحتاج إلى ركانة لمعرفته أو حتى إلى لمسه باليد بين حطّاب الهندوز واستجابة التلميذة » كما ذكر [٢] يريد أن يقول إن خديجة لم تكن تعترف به رسولاً ، إذ هي التي صنعته بيديها صُنْعا .

---

(١) ص ٢١١ .

(٢) ص ١٥٤ .

وهذا كلام ككلام الفحيحة حين تريد مكايدة السيدة الخيرة العفيفة فتقول لها بكل بجاحة ووقاحة وعلى ملإ من الناس : « أنا أشرف منك سلوكا وأطهر أخلاقا » ، وهي تعرف أن صاحبة العصمة والشرف لن ترد عليها . لكن الأمر عندنا أكبر من هذا الاعتبار ، ومن ثم فلا بد من الردّ على هذا السرار الذي يسلّح به فم المبشّر الكذّاب . فحديجة ، حتى لو افترضنا أنها هي التي جعلت من محمد نبيا ، لا يمكن أن تفعل هذا . أليست هي التي حفيت سعيا من أجل الزواج به وتصييره نبيا حسب نظرية هذا المبشّر الحسيس ؟ فكيف ، حينما نجحت أخيرا وبلغت هدفها بعد تعب خمسة عشر عاما ، تنقلب على عقبيها وتتنكر لكل ما فعلته وبذلته وضحّتْ به ؟ ولم إذن كان كفاح الأعوام الطويلة ؟ وفيم كان إنفاق الأموال الطائلة ؟ وما الحكمة من وراء كل ذلك التكتم الرهيب خوفا على روحها أن يقتلها أهل الكتاب إذا علموا أنه النبي المنتظر حسبما ذكر صاحبنا وكرّر ؟ والله إن مخلوقا يقول هذا عن حديجة لرقيع ! ولقد ردّد الفلحاس نفسه القول مرارا بأن سعادة حديجة بنجاح تجربتها مع محمد كانت لا توصف ولا تُحدّ[1] ، فكيف يتّفق هذا مع ذاك ؟ ثم إن ما وصلنا من كلام

(١) ص ٣٣٩ ، ٣٦٨ مثلا

حديجة إلى رسول الله قليل لا يسوّغ أن نقول إنها رضى الله عنها قد « دأّت » على أن تناديه هذه الطريقة أو بتلك ، لأن الدأب معناه العادة ، والعادة لا تصدق إلا على الأمر الذي يتكرر حدوثه كثيراً . كذلك فما من مرة نادت رضى الله عنها زوجها الكريم بعد الإسلام إلا وقالت له « يا رسول الله » ، أما قبل البعثة فكانت تقول له ، « يا أبا القاسم » أو « يا ابن عمّ » على قلة ذلك كما قلنا. وإلى القارئ شاهداً على كل من هذا وذاك :

فأما الشاهد الأول فمؤدّاه أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، في بداية ظهور جبريل له وقبل أن يتيقن أنه الوحي ، كان يقص على حديجة ما يسمعه ويراه ، فتقول له : « استر يا ابن عم ، فوالله إني لأرجو أن يصبح الله بك خبراً »[1]. وأما الشاهد الخاص بمخاطبتها إياه بعد البعثة بـ «يا رسول الله» فيتلخص في أنه حين مات ابنها عبد الله (بعد أشهر من وفاة أخيه القاسم) ، ولم يكن قد فُطم ، قالت : « يا رسول الله ، لو بَقِيَ حتى أفطمه ؟ قال - فإن فطامه في الجنة»[2] وهذا هو الوضع الطبيعي والمنطقي ، فقبل النبوة لم يكن

(١) تاريخ اليعقوبي / دار صادر ودار بيروت / ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م / ٢ / ٣٢ .
(٢) المرجع السابق / ٢ / ٣٢ .

من الممكن أن تلقنه بها ، أما بعدها فما دامت قد صدقته ودخلت في الدين الذي أتى به فكيف يمكن أن يدور في ذهنها هذا الذي يدّعيه عليها المبشّر التالف فتستكمف أن تعترف بأنه رسول من عند رب العالمين ؟

كذلك أثار الكاتبُ المستخفي عثياناً بادعائه المتن على مدار الكتاب كله بأن خديجة هي التي صنعت من محمد نبيا . فما العمل إذا قلنا له إن عددا من إخوة خديجة قد تأخروا في الإيمان سنوة محمد وحاربوه ، بل إن بعضهم مات وهو كافر به[1] ، ومع هذا لم نسمع أبا منهم يرفع في وجهه صلى الله عليه وسلم هذا السلاح ؟ أمن الممكن أن يصل الأمر بينه وبينهم إلى الحروب والدماء ، وبخاصة من لم يكونوا منهم لخديجة بأشقاء ، ثم لا يعايره أحد منهم بأن أخته هي التي سنّأته وصنّعَرته وقلّولته ؟ لقد قصرتُ القول هنا على إخوتها رضي الله عنها لأني لو أدخلت معهم أمثال أبي لهب وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد وغيرهم من الأباعد لقال الأبعد إن خديجة وورقة قد تكتما هذا الأمر تكتما . أما بالنسبة لأقاربها فما

(١) نسب قريش / ٢٢٨ وما بعدها .

كان لهذا التكتم أن يفلح مهما بالغت فيه واحتاطت له .

والرَّجُل العشيث يكذب ويدعى على طائفة من كُتَّاب السيرة ومدَّاحى النبى من الشعراء أنهم قد لجموا إلى ما قاله هو فى كتابه من أن خديجة هى صانعة النبى ومثقفته ومُهَذِّبته . قال هذا عن ورقة ، وقاله عن البوصيرى ، وقاله عن طه حسين ، وقاله عن د. عبد الحليم محمود ، وقاله عن غيرهم . ولأنه رقيع وضيع لا يستحى فقد أورد من كتاباتهم النصوص التى زعم أنها تشير إلى ما كانوا يعتقدونه واكتفوا بالحمجمة فيه دون التصريح [1] . وهذا جهل مطبق وسعار لا سبيل إلى الشفاء منه ، إذ من ذا الذى يحرؤ على العبث جهاراً نهاراً بالنصوص التى تمدح النبى وتمجّده وتبدى انبهارها برسالته صلى الله عليه وسلم وتثنى على خديجة لوقوفها إلى جانب زوجها وإيمانها الراسخ به وبدينه فيدّعى أنها تومئ إلى عكس ذلك تماماً إلا واحد قد فقد عقله وحياءه وبلع من ذلك مدّى لا يقبل علاجاً ولا نُرْعاً ؟ وبالمناسبة فهو هنا يردّد ما قاله المدعوّ « أبا موسى الحريرى » كما سلف الإيماء إليه .

---

(١) انظر ص ١٣٠ - ١٣١ ، ١٨٢ ، ٢٧٨ على سبيل المثال .

وسوف أسوق هذه النصوص التى فقد المبشّر الحقود المهتاج رُشْدَه فرعم نشأتها المراعم وسداً بالشعر المنسوب إلى ورقة ، ولا يهمنا أكان هذا الشعر صحيحاً أم لا ، فمنهجى على طول هذه الدراسة هو التسليم للمؤلف الحقود بما يعتمد عليه من روايات حتى لو كان لى رأى آخر فى وثاقتها ، وذلك حتى أبين للقارئ أن كلامه ، مع المسامحة المطلقة من جانبنا ، هو كلام لا قيمة له لأنه ، كما قلت مرارا ، لا يخرج من عقله بل من مخرج آخر . وها هى ذى الآيات التى أوردها لورقة

حتى خديجة تدعونى لأحبرها ... وما لها بخفىّ الغيب من خَبَرِ

جاءت لتسألنى عنه لأخبرها ... أمرا أراه سيأتى الناس من أخر

وحذّرتنى بأمر قد سمعت به ... فيما مضى من قديم الدهر والعُصُرِ (١)

فما الذى فى هذه الأبيات الثلاثة مما يمكن أن يتعلق به أى إنسان يفهم الكلام بعقله لا بشىء آخر فى القول بأنه دليل لا يقبل الشك على أن ورقة وخديجة قد « تعاصدا على إبحار التحرية التى موضوعها الوحيد / التحبيب » ؟ أهذا غاية ما عند أعداء محمد والإسلام ؟ أهذا

(١) ص ١٨٢ .

هو الكلام الذى تَنْشأ له مؤسسات لنشره فى ورق فاخر وإخراج فخم رغم أن أحدا فى العادة لا يشتريه ؟ لقد رأيت بنفسى فى معرض الكتاب أولاداً استأجرتهم إحدى دور النشر للصراخ بأعلى صوت كالمجنون الذى يعارك نفسه : « نُصّ ! شُفْ ! كُتُب فلان المصادرة ! نصّ ! شف ! كتب فلان المصادرة ! » ، ولم أر أحداً والله قد تعطّف والتفت إلى ما يقوله هؤلاء المساكين !

وبالنسبة للبوصيرى فقد نقل الناشر الملتفتُ العقل أبياتاً نسبها مؤلف « السيرة الحلبية » إلى ذلك الشاعر مسمّيًا إياه بـ « صاحب الهمزية » ، وهى تتحدث عن الأسلوب الذى لجأت إليه السيدة خديجة رضى الله عنها للتثبت من أن ما يراه الرسول عليه السلام ويسمعه ملاك لا شيطان ، فتبين لها أنه ملاك لا يمكن أن يأتى إلا بالخير ووردت فى كلام البوصيرى كلمة « الكيمياء » ، فحصّ عليها ميشريا الأمين جدا بأنيابه الزرقاء يريد أن يوهم القراء بأنها تشهد بصحة ما قاله من أنها رضوان الله عليها كانت تقوم بتجاربها على محمد كى تحقق منه نبيا [1] أفليس يُجرى العلماءُ فى معاملهم ، ضمن ما يُجرون ، « تجارب كيميائية » ؟ إذن فالبوصيرى عندما يذكر

---

(١) انظر ص ١٣٠ .

الكيمياء إنما يقصد هذه « التحرية » التى خاضتها أولى أمهات المؤمنين وحرجت منها بنبى حسب نظرية ذلك المتفلسف . أرأيتم ذكاء وأمانة كهذه الأمانة وذلك الذكاء ؟ لقد نظم البوصيرى الذى كان يذوب حبًا فى سيدنا رسول الله همزيته فى نحو أربعمائة وخمسين بيتا جعل فيها النبىّ عليه السلام سماءً لا تطاولها أية سماء أخرى ولا يستطيع أحد غيره من الأنبياء أن يرقّى رقيه ، وأكد أن كل نور فى الكون إنما هو مستمدّ من نوره ، كما أفاض فى الحديث عن معجزاته ، وصوّر جهاده العظيم فى سبيل الإسلام ، وردّ على مفتريات أهل الكتاب وهاجم معتقداتهم الكافرة ، وتشفّع به عليه السلام كى يغفر الله له ذنوبه يوم القيامة . إلخ ، فكيف يمكن أن يخطر فى ذهن أى إنسان أن الرجل يمكن أن يعمر النبى كما زعم المستشرق الرقيع ؟ صدق رسولنا الأكرم : « إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت » . وبالمناسبة فأنا متأكد أن ذلك الحاقد لا يعرف أن البوصيرى هو المراد بلقب « صاحب الهمزية » . وهذه هى الأبيات المذكورة :

وأتاه فى بيتها جبرئيل ... ولذى اللب فى الأمور اوتياءُ

فأماطت عنها الخمار لتدرى ... أهو الوحى أم هو الإغماء

فاحتفى عند كشفها الرأس حتى ... سربلٌ فما عاد أو أعيد الغطاء

فاستبانت خديجة أنه الكنـ ... ـز الذى حاولته والكيمياءُ

والواقع أنه لو كان البوصيري قد قال بدلا من « الكيمياء » الفيزياء أو الأحياء ، أو حتى اللوبياء أو الفاصوليا أو الدُّبّاء (والدُّبّاء هو القرع ، وكان سيدنا النبي عليه السلام يحبه) لكان كلامنا الهمام قد صباح سفس الرقاعة قائلا . انظروا ! ها هو ذا الشاعر قد أشار إلى أن خديجة كانت تُعِدّ الطبيخة لصُنّع سي ، بالضبط كما تُطبّخ اللوبياء والفاصوليا ! ذلك أن أمثاله لا يقف أمامهم شيء ، فهم لا يبالون بالمنطق ولا بأمانة العلم ! إن حقّدة المستشرقين والمبشرين لا يعرفون الحياء ، إذ ليس عندهم (كما تقول اللغة الدارجة) « شيء من الأحمر » ! وعلى أية حال فليس المراد بلفظة « الكيمياء » هنا هو العلم المعروف الآن ، بل « الإكسير » حسبما كان العرب يستعملونها قديما . ومعنى « حاولته » : « رامته » . وعلى هذا فشرح البيت هو أن خديجة قد تيقنت بالطريقة المذكورة أن زوجها هو النبي المنتظر وليس أحدا غيره ، وهذا هو الكنز الروحي الذي يحرص أي إنسان سيل على أن يحصل عليه . ولا علاقة لشيء من هذا ، كما ترى ، بالسحف الذي زعمه المستشرق المجهول . ترى لو كانت خديجة هي التي صنعت محمدا ، أكانت بحاجة إلى التحقق من صدق كونه هو النبي المنتظر ؟ بطبيعة الحال كلا ، إذ كيف

يستوى صدقٌ وتزييفٌ مصطنعٌ ؟

ثم إن للهمزية عدة شروح ، ومنها شرح الإمام ابن حجر ، الذى لم يترك فيها شيئا لا من جهة اللغة ولا من جهة النحو والصرف ولا من جهة التاريخ ولا من جهة الدين . إلخ إلاّ وأشبعه شرحًا وتحليلا وتوضيحا . فكيف فات ابن حجر ما رعمه المستشرر الأفاك على البوصيرى رحمه الله ، وابن حجر إمام كبير من أئمة الدين ؟ كذلك توجد على شرح ابن حجر حاشية للشيخ محمد الحفنى مُفْعَمة بالملاحظات على ما قال ابن حجر فى شرحه لا تكاد تترك منه شيئًا يستوجب التعليق إلا علقت عليه . ومع ذلك فعسَفًا بحث فيها عن شيء من هذا الادعاء الوقح الذى نَهَتَ به صاحبُنا الخادعُ الإمامَ البوصيرى . إن من المضحك المبكى أن نشغل أنفسنا بتفنيد هذا السخف التافه ، لكن مادا نفعل وفى البشر حمقى وجهلاء يمكن أن يدخل عليهم هذا الهراء فيرددوه كالسعاوات إذا لم يجدوا من يتصدى له ويمرّيه ؟

أما د. طه فلم ينقل المؤلف من كلامه إلا سطرًا تقريبًا ثم قطع النقل فجأة وأخذ يرعق ويصيح بما معناه « انظروا . هذا هو عميد

الأدب العربي يقول إن خديجة هي التي صنعت محمدا وجعلت منه نبيا . لقد قُضي الأمر وحُسمت المسألة ولم يعد هناك من شك في أن محمدا نبي مريب . وهل بعد كلام العميد من كلام ؟ . وهو في هذا يشبه إنسانا مقلولا مغلولا من رجل وامرأة شريفين تصادف أن تقابلا بمرأى منه في الطريق محرد تقابل ثم مضى كل منهما لطِيّته دون أن يمطر كل منهما للآخر ، فأخذ صاحبنا يصرخ بكل قواه «اقطعوا يا ناس إلى هذين المجرمين أ ها هما ذان يمارسان الفاحشة علنا على قارعة الطريق ، فانزلوا وشاهدوهما بأعينكم وهما متلبسان بجريمتهما» ويظل الناس فلا يَرَوْنَ رِيًا بل لا يحدون أحدًا بالمرة ، فيسألون عن سرّ إرعاجه إياهم دون سبب فلا يجدون منه إلا سحنة وقاحًا تعرى بضرب الحذاء ، لكنهم يعفّون عن أن يتجسّسوا أحذيتهم تضربه . والآن مع كلام طه حسين . يقول الرجل : « لقد أحسّت خديجة هذا الفتى منذ كان صبيا وجعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع أن ترقبه وتتبع نموه واكتماله » (١) فأين الكلام هنا عن التحرية التي مارستها خديجة بحق محمد ؟

---

(١) ص ١٣١

إن الدكتور طه يقول إنها « جعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع أن ترقبه » ، وهو ما لا معنى له إلا أنها لم تكن تلتقي به أو تتحدث معه بل كانت تتبع أخباره من بعيد . والحمد لله أن هذا الكلام لم يُكْتَبْ في أيامنا هذه ، وإلا لقال المبشّر المحترق إن المقصود أنها كانت تدير تجربتها بـ« الريموت كنترول Remote Control » ! ومرة أخرى ترانى أيها القارئ العزيز أقف عند كلام د. طه حسين دون أن أتساءل عن المصدر الذى استقاه منه ولا عن مدى أهلية هذا المصدر للثقة ، بل أحدثه مأخذ التسليم . ولقد رأيتَ بنفسك مدى الفحور الذى بلغه ادعاء المؤلف بشأن هذا النص أيضاً .

ونفس الشيء يفعله هذا الأفاك الصَحِ بالسطور التالية التى يقول فيها الرجل الشريف د. عبد الحليم محمود : « وعاش معها (أى الرسول مع خديجة) زهاء خمس وعشرين سنة دون أن يجمع معها زوجة أخرى ، وكانت أحب الناس إليه وأقربهم إلى نفسه صلى الله عليه وسلم لإيمانها العميق ووفائها النادر وحرصها التام على ما يُرضِى الله تعالى ويُرضِى رسوله صلى الله عليه وسلم » [1] إن

(١) ص ٢٧٨ .

النص، كما هو واضحٌ بيّنٌ حتى للأعمى ، يؤكد إيمانها العميق وحرصها التام على مرضاة الله ورسوله ، أما عُلُوج التشيير المستخفون في طيات الظلام فيقولون إن في ثنايا كلام شيخ الأزهر « تلميحا ولو من بعيد إلى دور الهِدْدُور في إحمار أُروع التجارب التي حَظِيَ بحدوثها في تصاعيفه القرنُ السابع الميلادي »[1]. هل تحدون أيها القراء الكرام فرقا بين صاحب هذا الكلام والمعلول المعلول الذي ادّعى على الرجل والمرأة الشريفين ما ادّعى ؟ أفلو كان الإمام الأكبر قد قصد شيئا من هذا أكان المبشّر الوضيع يتطاول على شخصه الكريم كما سبق أن ذكرنا ؟

ولا يكتفي القلحاس بهذا بل يتطالّ إلى تفسير القرآن الكريم ألا إن هذا لعجيب ! إن عند الإنجليز عبارة يضربون بها المثل في استحالة وقوع الأمر فيقولون . « Pigs might fly »، أي من الممكن جدا أن تطير الحمارير لكن قد يحدث فعلا أن تطير الحمارير كما هو الحال عند حدوث دوامة هوائية عنيفة مثلا ، أما أن يفسّر مبشّرٌ محترفٌ جهولٌ القرآن فهذا هو العجيب الغريب حقا ومع ذلك

---

(١) ص ٢٧٨

هيّا بنا نسمع ما يقول .

لقد فسّر قوله تعالى فى سورة « الفرقان » عن الكافرين المكذبين برسالة محمد من أهل مكة « وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . ؟ » بأن المراد أن خديجة كانت تطعمه وتعنيه عن السعي وراء المعاش (فهذا فى رأيه معنى قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ ») ، وأنهم كانوا مدركين لهدفه من وراء عشيان الأسواق ، ألا وهو الاحتلاط بأهل الأديان المختلفة والسماع منهم ومناقشتهم كى يكتسب العلم والثقافة على أيديهم (وهذا فى رأيه معنى قولهم : « ما له يمشى فى الأسواق ؟ ») . ثم أخذ يتعالم ويسمح بأنفه على المفسرين متهما إياهم بالجهل والبلادة العقلية والنقش من بعضهم البعض ومؤكدا أن تفسيره للآية هو وحده التفسير الذى يصحّ [1] فسالله عليك أيها القارئ الكريم (واعذرني أني أرهقتك معى بكثرة مناداتى لك واستغاثتى بك لتشهد على هذا الجهل المبين) ، بالله عليك هل يمكن أن يكون معنى قول الكفار للنبى عليه الصلاة والسلام - « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى

(١) ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢ .

فى الأسواق ... ؟» هو هذا الشىء الذى يتحفظ به ذلك المتشر الحسيس ؟ لو كان ما يقوله صحيحًا لقد كان يسعى أن يجىء اعتراضهم على النحو التالى « ما لهذا الرسول يأكل طعام حديجة ولا يسعى على ورقه بنفسه ؟ » . لقد كانوا ، فى الواقع ، يبكرون عليه الأكل مطلقا ، إذ كانوا يستغربون أن يكون الرسول الذى يتصل بالسماء بشرا من البشر ، فهذا معنى استنكارهم أنه يأكل كما يأكل الناس ، ويمشى فى الأسواق كما يمشون . لقد كانوا يريدونه مَلَكًا من الملائكة أو أن ينزل معه على الأقل واحد منهم فَيَرَوْه عيانا بيانا ، أو يدعُو الله فيرسل له كنزًا من الذهب والفضة والجواهر الثمينة لا ينفد ... إلخ كما جاء عقب هذه الآية . فاعتراضهم إذن اعتراض على بشريته وخصوصه مثل سائر البشر لقوانين الكون فى كسب المال بحيث لا يستطيع أن يحوز شيئا منه إلا بالاشتغال مثلهم بحرفة من الحرف .

والدليل على صحة هذا التفسير قوله تعالى فى نفس السورة بعد عدة سطور « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » ، إلا إذا طلع علينا « بسلامته » فقال إن كل الرسل كانوا يعيشون على أموال روحاتهم ، وكانوا يترددون جميعا

على سوق عكاظ ومحنة ودى المجاز ليستمعوا إلى ما يقوله القساوسة والأحبار . ويدور فى هذا المدار قوله عز شأنه فى آخر سورة « الرعد » « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية » ، فهذه الآية أيضًا ترد على استنكار من أنكر على الرسول أن يتزوج ويكون له أولاد كسائر البشر . وعلى أية حال فإن التردد على الأسواق الذى يدّعى مؤلف الكتاب أن محمدا كان يمارسه بعية التزود من الثقافات الدينية المختلفة على يد من يرتادها من الأحبار والرهبان ، والذى يقول إن خديجة هى التى أمرته به ، إنما كان قبل البعثة حسبما قال بعظمة لسانه الذى يستحق أن يُقْطَع من جذوره ويُرْمَى للكلاب ، أما الآية الكريمة التى بين أيدينا فتنتمى بطبيعة الحال إلى ما بعد البعثة برمن غير قصير لأن سورة « الفرقان » ليست من سور الوحى الأول . أى أن ما يقوله هو هراء فى الهواء !

وعجيب جدٌّ عجيب أن يتطاول مثله إلى تفسير القرآن، وهذا هو أسلوبه ومستواه فى لغة القرآن ! وأعجب منه أن يأخذ فى الهمز واللمز والتلميح إلى أن القرآن هو من عند رسول الله، الذى حرص على وصفه فى هذا السياق بالتفوق فى مراحل الفصاحة، وإن أرحمها فى ذات الوقت إلى تنشئته فى بنى سعد وَحْدَها ناهيك أن يكون لله دخل

فى ذلك على أى نحو وسرّ حرصه على الإشادة ببلاغة رسول الله عليه السلام ليس حبّه له ، فهو يمقته مقتا شنيعا لم أر أحدا غيره يمقته إياه ، بل رَغْبته فى القول بأن القرآن إذا كان فصيحا فذلك راجع إلى فصاحة محمد [1] والحق إن مثل هذه المسألة لهى أرقى من أن يتطاول إلى الحديث فيها أى أحمق جهول . ولن نطيل القول فى هذا الموضوع بل نكتفى بإحالة القارئ الكريم إلى الدراسة التى صدرت لصاحب هذه السطور حديثًا فى نحو ستمائة صفحة بعنوان « القرآن والحديث ـ مقارنة أسلوبية »[2]، وليسوف يجد ما أثبتت الإحصاءات والمقارنات الأسلوبية بين القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فى الألفاظ والصيغ والتراكيب والعبارات والصُّوَر والقسَم وأسماء الأعلام والبنية القصصية وغير ذلك من أن الأسلوبين مختلفان تمام الاختلاف مما يقطع بأن القرآن لا يمكن أن يكون من عند محمد . وهذه الدراسة بزعم ذلك ، ليست إلا أول الغيث فى هذا المجال ، والأمل معقود على من يأتون بعد هذا فيتوسعون فى دراسة ذلك الموضوع مستعينين بالحاسوب والرياضيات الحديثة . أما

(١) ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٢) نشر مكتبة زهراء الشرق .

كلام المصاطب الذى يردده الرقعاء الجهلاء فمكانه تحت الحذاء.

وبعد ، فقد آن الأوان أن نُحْلِس مبشّرنا الفلحاس على الخازوق لقد رهم العبقري الهمام أن الذين صنعوا محمدا هم ورقة وخديجة وعداس وأبو بكر . لكننا جميعا نعرف أن هؤلاء كلهم قد آمنوا به صلى الله عليه وسلم وأحبّوه وأجلّوه وأسكنوه داخل حبات عيونهم . أم تراه سيقول إنه سقاهم « حاجة أصفرة » وضحك عليهم وأدخلهم فى دينه دون أن يشعروا ؟ إن الإنسان ليتساءل لم يا تُرَى كل هذا الحقد على سيد الأسياء ودينه ، وبخاصه فى عصرنا هذا ، عصر العلم الذى كرّمه دين محمد تكريماً لا ضريب له فى أى دين أو مذهب فلسفى أو تربوى آخر ؟ إن من حرج فى طلب العلم فهو (حسبما يقول الرسول الكريم) فى سبيل الله حتى يرجع ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن مداد العلماء ليُوزَن بدماء الشهداء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب ، وإن من اجتهد فى مسألة من المسائل فأخطأ فله أجر - إلخ ، إلخ إن كان لذلك من آخر . فما الذى فى هذا يا إلهى (وما هذا إلا نقطة واحدة من بحر زخّار مزّار) مما يمكن أن يبعث على الكفر بمحمد أو التنقص منه ومن